مد رستا أهل القرآن واقرأ لتعليم القرآن الكريم

مقرر المسابقة الثانية عشر

تفسير القرآن الكريم
الجـــزء الثاني عشر

من كتاب
الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر
موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية
https://areejquran.net/

دعـوة من القلب

لأننا نحبكم في الله فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين الله تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي والذي يمكنكم التعرف عليه من خلال الرابط المذكور أعلاه أو التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١ _ ٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عز وجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

تفسير الجزء الثاني عشر

١. قدرة الله تعالى، و إنكار المشركين للبعث، وحال الإنسان عند الابتلاء

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ(٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ(١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(١١)﴾

وبعد بيانِ حالِ المشركين مع الدّعوةِ المحمّديّةِ جاءَ إلى بسطِ دلائلِ التّوحيدِ وعظمةِ اللهِ؛ فإنّ عرفان الله داعٍ إلى الإيمانِ بهِ والإذعان له ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ليسَ في أرضِ الله الواسعةِ من مخلُوقٍ يدبُّ ويتحرّكُ إلاّ قد تكفّل الله بحفظِ رزقِه إلى بلوغ أجله تفضُّلاً منه؛ بمعنى أنّه عالمٌ بحال كُلّ مخلوقٍ ولم يُضيّعهُ، وتقديمُ الجارّوالمجرورِ "على الله" على متعلّقه أفادَ القَصْر أي عليهِ وحدهُ، ويُمكن فهم "على" بمعنى "مِن"، وزيادةُ "في الأرضِ تأكيدٌ لدبيبِ الدّابّةِ؛ وهو تعبيرٌ عن الأصلِ فلا يخرُج منه ما حبس عنِ الحركةِ لعلّةٍ أو كان يطيرُويمشي، والأرضُ ما تحتَ السّماء فشملت البحارَ ونحوها ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ والله عالمٌ بكُلّ دابةٍ أينَ تسكُنُ وتعيشُ في هذهِ الأرضِ؛ وإلى أينَ تصيرُبعد موتها، و"المستقرُّ" الأرحامُ أو الدّنيا و"المستودع" القبر، على أنّه كما كان المستقرُّفضلاً فَالمستودعُ كذلك فهو جزءٌ من ملكه تفضّل بهِ ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كُلُّ تلك الدّقائق من رزقٍ وعُمرٍ وأجلٍ ونحوِ ذلكَ في علمِ اللهِ الجليّ في اللّوحِ المحفوظِ، أو لفظُ "كتاب" مصدرٌبمعنى كتابةٌ، ولا يكشفُ ذلك العلم للخلقِ كما هو ظاهرُ معنى "مبينٍ" و إنّما المرادُ علمٌ خلا من النّقصِ والخلل والاضطرابِ ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الله وحدهُ خالقُ السّماواتِ العلا وما حوينَ من نجومٍ وكواكبَ و أقمارٍوخالقُ الأرضِ البديعةِ ببحارِها وجبالها وسُهولها؛ كُلُّ ذلك عبر ستّ مراحل؛ أو المرادُ في ميقاتِ ستّةِ أيامٍ من أيام الله ولا يلزم أن تكون كالأيام التي نعرفها، وعلى كُلّ فقد تضمّنَ هذا تربيةً على التّأنّي في الإنشاءِ فإنَّ قدرةَ الله لا ترتبطُ بزمنٍ طالَ أو قصُر ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ وبعدَ خلقِ السّماواتِ والأرضِ أو قبل خلقِهما خلقَ الله الماء وكان مالكًا له ذا سُلطةٍ عليهِ وعلى ما تعيشُ فيه من المخلُوقاتِ العظيمةِ؛ وهذا على تأويلِ العرشِ بالملكِ ويُناسبُه أنّه ذكرَ الأرض والسّماء وزادَ هنا الماءَ، وأما

على القول بجوازِ نسبِ العرشِ بمعنى الكرسيّ إلى اللهِ دُون وصفه بالجلوسِ وما يبعثُ على التّشبيهِ والتّجسيمِ –تنزّهَ الله عن ذلك- يكونُ المعنى: خلقَ العرش وجعلهُ على الماءِ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ خلقَ كُلّ ذلك كي يختبركم فينظُر أيّكم يكونُ إليهِ أقرب بالأعمالِ الصّالحة، ولَمّا عبّر بصيغةِ التّفضيلِ "أحسنُ" وعلّق البلوى في (ليبلوكم) على الاستفهامِ؛ تضمّن الأسلوبُ نوعًا من التّحضيضِ على التّنافُسِ في الأعمالِ. ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ وإذا ما أخبرتَ المشركينَ أيّها الرّسُول ﷺ بأنّكم سوفَ تحيونَ من جديدٍ بعدَ الموتِ وتُحاسبُون، وأكّد الكلام لأنّ المخاطبينَ منكرُونَ للبعث ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سيُجيبُونك بأنّ القرآن الذي يُخبرُك بأنّنا سنُبعثُ ما هو في الحقيقةِ إلاَّ سحرٌ ظاهرٌ، أو "هذَا" راجع إلى مقولتِه ﷺ، أي: ما هذا الذى تقول من البعث بعد الموت إلا سحر ظاهر، واللاّم في "لئن" موطّئةٌ لقسمٍ، وفي السّياقِ ما تضمّن لومًا للمشركينَ وتعجيبًا منهم حيثُ لم يعُوا أنّ حكمةَ خلقِهم للابتلاءِ والجزاء فأنكرُوا البعثَ كأنّهم خُلقُوا عبثًا! ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ وإذا حقَّ عليهم العذابُ بسببِ كُفرِهم وأجّلناهُ عنهم إلى مدّةٍ محدودةٍ رحمةً بهم؛ جهلُوا ذلك وقالُوا تنطُّعا واستهزاءً: ما الذي منع العذابَ من المجيء؟ والأمّةُ هنا المدّةُ وتنكيرُها للتّقليلِ؛ وهي لفظةٌ اشتركت فيها عدّةُ معانٍ منها الجماعةُ والملّةُ، والعربُ تقولُ عن الشّيءِ: معدودٌ تريدُ قلّته كما تُعبّرُ عنِ الكثيرِ بقولِ: بغيرِ حسابٍ ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ألاَ فليستيقنوا أنّهُ حينَ يجيئهم العذاب فلن يرفع عنهم بحالٍ من الأحوالِ، والصّرفُ الدّفعُ والإبعاد، وهذا الكلامُ بمنزلةِ الجوابِ لهم تَشَرّبَ معنى التّهديدِ؛ فقد افتتحَ بحرفِ تنبيهٍ لإلقاءِ الرّوعِ وقدّمَ الظّرفَ "يوم" لإثباتِ التّحقّق ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وحينها يكونُ قد حلَّ بهم العذابُ الذي سخروا منه، و"حاقَ" من الحَوْقِ أي نزلَ وأحاطَ ولا يُستعملُ إلاَّ في الشّرِ، وجاءَ بصيغةِ الماضي لإفادةِ ثبوتِهِ وللمبالغةِ.

وبعدَ ذكرِ المُعْرِضِينَ يفصّلُ سببَ إعراضهم بالحديثِ عن طبيعةِ الإنسانِ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ وإذا تفضّلنا على الإنسانِ العاصي المعرض بشيءٍ من الخيرِ كالمالِ والصّحّة فرحَ، واللاّمُ في "لئن" ممهّدةٌ لقسمٍ محذوفٍ تقديرُهُ والله إن أذقنا .. والذّوقُ في المطعوماتِ عمّمهُ في الخيرِ على سبيلِ الاستعارةِ؛ وهو في عموم أحوالِه تمثيلٌ للقلّةِ، و أفادت "منّا" امتنَانًا وتذكيرًا بمصدرِ الرّحمة الحقيقيّ، كما أنّهُ استعمل لفظَ الرّحمةِ في الحديثِ عن النّعمةِ لما تضمّنه من معنى التّفضّلِ ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ وإذا ما سلبنا الخير منه تذكيرًا لهُ بأن يشكُر قابل ابتلاءنا باليأسِ الشّديدِ منّا وبالكُفرِ الفظيعِ بنا، وجاءَ بـ"ثم" تنويهًا بأنّ السّلب كان بعدَ طولِ نعمةٍ فلو كان تعجيلاً لكانَ القنوطُ أشدّ والكُفر أفظع، واختارَ الانتزاع دون السّلبِ أو المنعِ لإفادةِ أنّه كان متعلّقًا بالخيرِ ومتشبّثًا بهِ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ

نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ وإذا أعدناهُ إلى حالِ النّعمةِ والرّخاءِ بعد الضّرّالذي لحقَ بهِ، والنّعمة والضّر أعمّ من النّعماءِ والضّرّاءِ لأنّ وزنَ "فعلاءَ" خرجَ مخرجَ الأحوالِ الظّاهرةِ أي تنصرفُ إلى ما ظهرَ من النّعمةِ والضُّرّ، ولم ينسب الضّرّإلى نفسهِ صراحةً تعليمًا للأدبِ مع اللهِ في نسبِ الخيرِإليهِ دون الشّرّ، وبدأَ في الحالينِ بذكرِالنّعمةِ تقريرًا بأنّها الأصلُ وتنبيهًا إلى أنّها سبقت الضّرّ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ قال فرحًا وبطرًا: ابتعدت المصائبُ عنّي ولن تُصيبني؛ أي بقدرِما كان قانطًا من ذهاب السّيّئاتِ اغترَّببقائه على النّعمةِ، وحكى الله حالهُ بإيرادِ مقولتِه لبيانِ تبجّحِهِ، ولمّا كان ذلك المغترُّغيرَشاكرٍلله بعدَ الفرجِ وصفهُ بقوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ إنّ ذلكم الإنسان فرحٌ بالدّنيا مفتخرٌبما أوتيَه؛ وذمّهُ لأنّ ذلك الفرح وذلك الافتخارمن البطرِوالتّعالي الملهي عن الشّكرِ، والفخرُالتّباهي على الغيربأمرٍمحبوبٍ، و"فرِحٌ وفخورٌ" صيغتَا مبالغةٍ. ثمّ قال احترازًا ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلاّ المؤمنينَ بالله الصّابرينَ في الضّراءِ استسلامًا له؛ العاملينَ في السّرّاءِ الخيرَشُكرًا للنّعمةِ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أولئكَ يستحقُّون من الله مغفرةً عظيمةً وأجرًا كبيرًا، وكبرُالأجرِمجازٌعن كثرتِه وحُسنِه ودوامه، و إيرادُ المدحِ بعدَ اسمِ الإشارةِ تنبيهٌ إلى استحضارِالمذكورينَ بأوصافهم التي استحقُّوا المدحَ بها.

٢. مواساة الرسول صلى الله عليه وسلم على إنكار المشركين للوحي

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)﴾

وتفرّعَ عن ذكر استهزاءِ المشركينَ السّالفِ أن نبّهَ الله الرّسُول ﷺ إلى معالجةِ ما يدُورُفي خاطرِهِ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ لعلّه انطوى في نفسِكَ أيّها الرّسُول ﷺ تفكيرٌفي إخفاءِ بعضِ ما يُوحى إليكَ تحرّجًا من تبليغه؛ وهذا ظاهرُالآيةِ و إنّما ينبغي تأويلُ "لعلّ" باليقينِ فلا توقّعَ مع اللهِ، و أنّه يقدراستفهامٍ أي: أكُنت تترُكَ الوحيَ بسببِهم؟ وهوَلمجرّدِ التّحذيرِلأنّه ﷺ مبرّأٌ من ترك بعض الوحي أو إخفائه؛ وَدون أن ننفي ثبوتَ هواجس الأفكارِله التي هي طبيعةٌ بشريّةٌ لكن لا يُقرّها ﷺ؛ على أنّهُ قد يكُون تحذيرًا من تأخيرِتبليغِ ما حقُّهُ أن يُقدّمَ لسببِ التّحرّجِ المشارِإليهِ وليسَ كَتمًا ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ لئلاّ يقابلك الكُفّارُبأنواعٍ من التّعجيزِكقولهم: لولا أعطي أو حصل له كنزا من الكنوزِأو يجيءُ معكَ ملكٌ يُصاحبك مؤيّدًا لكَ، و"أُنْزِل" بمعنى حصل أو كسب؛ لأنَّ الإنسانَ لم يعهد كنوزًا تنزل من السّماءِ كما أنّ معنى المكنوزِلُغةً المخبُوء، وقيل: لا مانع من

أن يكون الإنزال على ظاهره، فيكون المعنى أنهم طلبوا نزول كنزعليهم من السماء، وسماه كنزا لأنه قابل لأن يكنز "يخبأ". ولمّا كان الغرضُ مما سبقَ هو تثبيته في دعوتِه قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌوَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ لستَ يا مُحمّدُ ﷺ إلاَّ منذرًا النّاسَ من عذابِ اللهِ أي لستَ مكلّفًا بتحقيقِ ما طلبُوه؛ ولذلكَ عقّبَ بأنّ الله هو القائمُ بكُلِّ شيءٍ؛ فيُعذّبُهم إن شاءَ أو يُمهلُهم ويعصمُك منهم، وفي الإشارةِ إلى التّوكّلِ هنا إرشادٌ إليهِ.

وحينَ كان الرّسُول ﷺ لا يُجيبهم إلى ما طلبُوهُ لزعمهم أنّهم يُؤمنون إذا أجابهم؛ اشتغلُوا بالقرآنِ يقدحون فيهِ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أيدّعُون أنَّ محمّدًا كتب القرآن من عندِه أو أملاهُ عليهِ أحدٌ غيرالله؟ والاستفهامُ إنكاريٌّ تعجّبيٌّ، أجبهم أيّها الرّسُول ﷺ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ اجتهدُوا و أتوا بعشرِ سورٍ مثل سورِ القرآن فصيحةٍ بليغةٍ على نحوِ ما افتريتُهُ؛ وهذا على أسلوبِ المناصفةِ والتّسليم الجدليّ وإلاَّ فالرّسُول ﷺ لا يأمرُ بما هو باطلٌ، وقد تحدّاهُم الله بأن يأتوا بمثلِ القرآنِ فعجزوا[1] ثمّ بعشرِ سورٍفعجزوا ثمَّ بسورةٍ فعجزوا كذلك[2] وقد عدَّ القُطب أطفيّش ذلكَ التّحدّي منسجمًا حسبَ النّزولِ[3] ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ونادوا مَن أردتُم مِن الخلقِ ليُعينكم على عملكم؛ إن كُنتم مستيقنينَ أنّي كذبتُ القرآن، وفي هذا تحدٍّ كبيرٌلكُلِّ النّاسِ عبر قرونِ الدّعوةِ المحمّديّةِ؛ فإنّه لم يقوَ أحدٌ على إنشاءِ مثلِه، ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فإذَا تبيّنَ لكم أيّها المشركونَ أنّ الذينَ تدعونهم من الخلقِ عاجزون عن معاونتِكم؛ أو الخطابُ للرّسُول ﷺ وَللمؤمنينَ بمعنى إن لم يستجب لكم المشركونَ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ فاستيقنوا أنَّ القرآنَ تنزّلَ من اللهِ وفقَ حكمتِه وتقديرِه وليسَ من إنشاءِ المخلُوقينَ البتّة؛ وقد أفادت "أنّما" الحصر﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ واستيقنوا أنّه لا معبودَ بحقٍّ إلاَّ الله الذي أنزلَ القرآن، وفي هذا التّعقيبِ لفتةٌ لطيفةٌ بأنّه ليس بعدَ الإيمانِ بالقرآنِ شيءٌ يسبقُ الإيمان بألوهية الله، وأنَّ بينهما حبلاً متينًا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ استفهامٌ تضمّن معنى الأمرِأي فأسلموا للهِ الذي عرفتُموهُ فقد قامتِ الحُجّةُ عليكم، وإذا كان خطابًا للمؤمنين يكونُ المعنى اثبتُوا على الإسلامِ.

---

[1] وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء ٨٨].

[2] ومنه ما جاء في سورة البقرة؛ وفيه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة ٢٣].

[3] يُنظرُ: امحمّد بن يُوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، ج٦، ص٣٥١.

٣. نيل الكافر نصيبه من الدنيا، والآخرة عند الله للمؤمنين

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)﴾

وهكذا لمّا كان التّملُّص من الإذعانِ للهِ ليسَ وراءهُ إلاّ الاغترار بالحياةِ الدّنيا وملهياتها قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ من كان منكم أيّها النّاسُ يرغبُ من خلالِ سعيهِ واجتهادِهِ الدّؤوب أن يُحصّل متاع الدُّنيا ونعيمها الزّائل، وزينةُ الحياةِ كُلّ ما من شأنِه أن يُحبّبها للقلوبِ ككثرةِ الأموالِ ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ نُتمّم لهم كُلّ ما يسعونَ إليهِ للحصولِ عليهِ من قوّةٍ وسُلطةٍ وأموالٍ ونحوِ ذلكَ، وضميرُ "فيها" عائدٌ للأعمال التي عملوها في الدّنيا أو تعودُ للدّنيا، وفي هذا دليلٌ على أنّ الكافرَ لا يُمنعُ النّعمةَ ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ولا يُنقصُ من جزائِهم الدّنيويّ أيّ شيءٍ بل قد يزيدُهم الله لاستدراجِهم؛ على أنّ كلّ ذلك وفقَ مشيئتِهِ تعالى كما في قولِه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء ١٨] والكلامُ وعدٌ إلهيٌّ دنيويٌّ بأن يُكافئهم على ما قدّموا في الدّنيا من أيّ عملٍ فيهِ بصمةُ الخيرِ. ويتعقّبُهُ بوعيدٍ أخرويّ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ أولئك المشتغلُون بالدّنيا يلهثُون وراءها ليسَ لهم مما يُعطى للنّاسِ في يومِ الحسابِ إلاّ عذاب النّار؛ وفي هذا إيماءٌ إلى الخلودِ فيها ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ وذهبت سُدى كُلّ إنجازاتهم الدّنيويّة التي لم يقصدُوا بها وجهَ اللهِ تعالى، وعبّر بالصّناعةِ هنا دلالةً على الأعمالِ المكتسبةِ التي ألفُوها واعتادُوها في أعمارٍ طويلةٍ غيرَ أنّها باطلةٌ ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وكانت أعمالُهم كُلّها فاسدةً غيرَ مقبولةٍ؛ إمّا لكونها مسخطةً لله كالمعاصي أو هي أعمالٌ صالحةٌ قُدّمت في ثوبِ الشّركِ وانعدامِ الإخلاصِ فلم تُقبل، وهذا تأكيدٌ لما سَبقَ.

ثمّ يعقدُ الله مقارنةً بينَ المبطلِين والمحقّينَ ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أيكونُ العبدُ المؤيّدُ ببيّنةٍ من اللهِ والله قد جعلَ لهُ ما يشهدُ على صحّةِ دينِه كالذي غرّتهُ الدّنيا واتّبعَ زينتها! فجوابُ "من" الشّرطية في الآيةِ محذوفٌ، والاستفهامُ للإنكارِ أو للتّقريرِ، والبيّنةُ القرآنُ أو حُججُهُ، و"يتلُوهُ" أي يَتْبَعُهُ ؛ على أنّ الشّاهدَ لسانُه ﷺ أو هو القرآن، أي ويَتْبَع كونه مؤيدا ببينة من الله شاهد من الله يشهد بصدقه في رسالته، هذا الشاهد هو القرآن الذي تحدى الله به البشر، أو لسانه ﷺ الذي يعرف من سمع كلامه أنه كلام صادق لا كاذب، وقيل: هو جبريلُ عليه السلام كما حكى بعضُ المفسّرينَ بناءً على قولٍ منسوبٍ إلى ابنِ عبّاسٍ وغيرِهِ، وَهاءُ "منهُ" عائدةٌ إلى الله أو الرّسُولِ، وعلى كُلٍّ فإنّ فحوى الآيةِ إشارةٌ إلى أهلِ الإيمانِ بأنّ بينهم وبينَ أهلِ الشّركِ والعصيانِ بونًا شاسعًا ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا

وَرَحْمَةً﴾ ولقد جاءَ قبلَ القرآن التّوراةُ المنزلةُ على موسى عليه السلام تهدي مَن اتّبعوها إلى طريقِ الحقّ وينالُونَ ببركتِها رحمةَ اللهِ من سعادةٍ دُنيويّةٍ وفوزٍ أُخرويّ، والإمامُ لُغةً الذي يُقتدى به ويُتّبع، والإشارةُ إلى التّوراةِ هنا تذكيرٌ بأنَّ القرآن لم يكن بدعًا من الكُتُبِ و إنّما جاءَ مُصدّقًا لما قبله ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ والموصوفونَ بأنّهم على بيّنةٍ من ربّهم يُصدّقُون بالقرآنِ ويعملُون بهِ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ والذي يكفُرُ بالقرآنِ العظيم من أيّ ديانةٍ أو فكرٍ فجزاؤُه الذي ينتظرُهُ عذابُ النّارِ السّرمديّ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ فلا تشكَّ في القرآن أبدًا؛ والخطابُ لِلرّسُولِ ﷺ على طريقِ النّهي التّحذيريّ ولمن يصلُح له، على أنّ السّياقَ يُؤذنُ بأنّهُ تعريضٌ لمن شكَّ فيهِ من المشركينَ، ويجوزُ عودُ هاءِ "منهُ" إلى تحقّقِ الوعيدِ بالنّارِ، وعوده إلى القرآن أنسب؛ لأن السياق فيه ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنّهُ كتابٌ ثابتٌ صادقٌ من اللهِ، وفي هذا تأكيدٌ لمضمونِ ما سبقَ بأنَّ الحقَّ الكامل في القرآن وأنَّ القرآن كلّه حقٌّ لأنّه من ربِّ العالمينَ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ غيرَ أنّ الأغلبيّةَ من النّاسِ لا يُصدقُونَ كلامَ اللهِ ويغترُّونَ بغيرِه.

٤. عظم إثم من افترى على الله الكذب، وعظم أجر المؤمنين العاملين

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾

وحينما سلفَ الحديثُ عن اتّهامِ المشركينَ الرّسُول ﷺ بافتراءِ القرآنِ بيّن هنا وعيدَ المفتري على الله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ليس هنالكَ أحدٌ أشدَّ ظُلمًا من الذي كذب على اللهِ؛ كالمشرك الذي يدّعي أنّ لله ولدًا أو شريكًا وكالمنافِق الذي أحلّ حرامًا أو حرّم حلالًا، والاستفهامُ في الآيةِ للنّفي، ويُمكنُ تأويلُ الآيةِ بأنّها جرت على لسانه ﷺ كأنّهُ قال: لا أحد أظلَم منّي إن افتريتُ القرآن ولا أحد أظلَم منكم إن نفيتُم أنّه من الله ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أولئك الموصوفونَ بالافتراء على اللهِ سوفَ يجمعُهم الله ليومِ العرضِ الأكبرِ مع كافّةِ البشرِ لحسابِهم، وعرضُهم على الله عرضٌ لأعمالِهم. ويتقدّمُ مِن الأشهادِ مَن يفضحُ أولئكَ المفترينَ أمام الخلائق؛ يقُولون: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى

رَبِّهِمْ﴾ هؤلاءِ هُم الذينَ كذبُوا على الله، والإشارةُ بـ"هؤلاءِ" لتمييزِهم عنِ الغيرِ لغرضِ فضحِهم لا لإثباتِ كذِبهم فالله أعلمُ بهم، والأشهادُ -على ما شاعَ في آراءِ المفسّرينَ- الملائكةُ والأنبياء والرُّسُل والصّالحون والجوارح؛ وأضافَ بعضُهم: أهلُ الموقفِ عامّةً أوكافّة النّاس، وهنا تمَّ كلامُ الأشهاد أو مع قولِهم: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ألاَ إنّ سُخطَ الله لاحقٌ بكُلّ ظالمٍ؛ والذينَ كذبُوا على اللهِ منهم من بابٍ أولى، ووصفَهُم بالظّلمِ لمزيدِ تشنيعٍ، ويُؤيّدُ أنّ هذا من كلامِ الأشهادِ؛ وبترجيحِ أنّهم الملائكة قولُه تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف ٤٤]. ويصفُ الظّالمينَ عامّةً بأنّهم ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الذينَ زاغوا عن نهجِ اللهِ المستقيمِ ويريدُونَ أن يكونَ سائرُ النّاسِ على اعوجاجهم و انحرافهم، وهاءُ "يبغُونها" تعودُ إلى السّبيلِ، وسبيلُ الله استعارةٌ للطّريقِ المستقيم المعبّد الذي يرتاحُ سالكه لقطعِه حيثُ وضحت معالمه ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم مع ذلكَ الإضلالِ والضّلالِ منكرُون للبعثِ والحسابِ بصريحِ مقالِهم أو بلسانِ حالِهم لَمَّا يُضلّونَ النّاس، وقدّمَ الجارَّ والمجرور"بالآخرةِ" على متعلّقِه "كافرُونَ" للاهتمامِ؛ كما أنّ "هم" الأُولى دلّت على نوعٍ من اختصاصِهم بالكُفرِ بالآخرةِ. وبعد كُلّ ذلك الذّمّ والتّشهيرِ بهم يتبادرُ سؤالٌ عمَّا ينتظرُهم فيُجيبُ: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ ليسَ لأولئكَ الظّالمينَ مِن انفلاتٍ مِن قبضةِ اللهِ مهما ابتعدُوا في الأرضِ أو تحصّنوا فيها، أو"مُعجزينَ في الأرضِ" عُبّر به ككلامٍ جرى مجرى المثلِ في القرآنِ عن الحياةِ الدّنيا وعُمرِهم فيها أي لا يُعجزونَ الله في الدّنيا وسيُحاسبُهم؛ والله قويٌّ قديرٌفكيفَ يُعجزونهُ! وكرّرَ في آيةٍ واحدةٍ أربعَ مرّاتٍ نفيَ الكونِ مبالغةً في نفيِ تلكَ الخصالِ عنهم ولو شاءَ لقال: أولئكَ لا يُعجزونَ ولا أولياء لهم؛ وهلُمَّ جرًّا ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وليسَ لهم مِن وليٍّ غيرِ الله مهما كانَ ليقُوم عليهم فيمنعهُم من عذابِ الله الدّنيويّ إذا جاءَ ليأخُذهم أو العذاب الأخرويّ الذي سيحقُّ عليهم، وهو الذي قالَ فيهِ: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وسوفَ ينالُون عذابًا متضاعفًا في النّارِ بقدرِ غلوّهم في الضّلالِ وكُفرِهم؛ وهذا ينسجمُ مع تأويلِ: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر ٤٠] أي إنّ تضاعُف العذابِ لهم لم يكن إلاّ لِكونهم ضلُّوا وأضلُّوا. ويُبيّنُ الله السّبب الذي عرّضَهم لكُلّ ذلكَ ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ لقد عاشُوا كسائرِ النّاسِ لكنّهم لم يُوظّفوا سمعهم لوعيِ الحقّ ولم يستعملُوا بصائرَهم لإدراكِه، وعبّرعن ذلكَ بعدمِ الاستطاعةِ مجازًا عن عدمِ الرّغبةِ منهم لأنّهم لو رغبُوا في السّماع لحصلت لديهم القوّة على الوعيِ والإدراكِ؛ أو من بابِ أنّ ذلكَ صعُبَ عليهم فعدَّهم كمن لا يُطيقُه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أولئكَ الذينَ ضيّعُوا ما خُلقُوا من أجلِه فلم يُوظّفُوا جوارحهم وأعضاءهم في طاعةِ اللهِ؛ فَفوّتُوا على أنفسهم الفوزَ الأبديّ بالجنّةِ لدخولِهم النّارَ، وجدّدَ الإشارةَ بـ "أولئكَ" أكثرَ من مرّةٍ إلى الموصوفينَ بالظّلمِ دعوةً للسّامعِ بأن يضمَّ ما حُكيَ عن خصالِهم إلى بعضٍ لتكتملَ لديهِ صُورتُهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وفقدُوا ما ظنّوا أنّه سينفعُهم من الشّركاءِ

والشّـــفعاءِ ونحوِ ذلك مما علّقُوا عليهِ آمالَ نجاتِهم، ولقد اســـتعارَلهم حالَ من تمنّى ربحًا من خلالِ سعيِه فباءَ بخسارةٍ؛ ثمَّ ركّبَ على ذلكَ استعارةً أُخرى فشبّههم بحالِ من سارَخلفَ دليلٍ لينقذهُ فضاعَ عنهُ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ ولا بُدَّ أنّهم في اليومِ الآخرِهم أشدّ النّاسِ خسارةً وضياعًا، و"لا جرَمَ" لفظٌ يُعبّرُبه عن الجزمِ واليقين؛ مركّبٌ من "لا" نافيةٍ وفعلٍ ماضٍ بمعنى قطعَ؛ يُقالُ: جرم الشّيءَ أي قطعه؛ فهي على هذا مؤوّلةٌ بـــ"لابدَّ أو لا محالة"؛ ورأيٌ آخر أوّلَها بتركيبِها بمعنى حقًّا؛ على أنّ جرمَ بمعنى "حقّ"، ووسمَهم بصيغةِ "الأخسر" لأنّ خسارتَهم نشأت على اعتقادِ أنّهم محسنُونَ؛ كما في قولِه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف ١٠٣-١٠٤].

ومقابلةً لأهلِ الضّلالِ يذكُرُأهل الصّلاحِ؛ إذ النّفسُ تشرئبُّ عند سماعِ حُكمٍ إلى معرفةِ ضدّهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ والذينَ رسـخَ الإيمان في قلوبِهم وترجمته عنهم جوارِحُهم بِأعمالهم الصّالحة؛ وعاشُوا خاضعينَ للهِ باتّباعِ كافّةِ أوامرِه، والإخباتُ الخضوع والتّذلّل؛ مأخوذٌ مِن النّزولِ في الخبتِ مِن الأرضِ أي المنخفضِ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أولئكَ المذكورونَ بتلكَ الأوصافِ هم الذينَ سيفوزن بالجنّةِ ويخلُدون فيها أبدَ الآبادِ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِوَالسَّمِيعِ﴾ مثلُ فريقِ الكُفّارِكحالِ من جمعَ بينَ العمى والصّممِ ومثلُ فريقِ المؤمنين كحالِ من جمع بينَ البصيرةِ والسّمعِ؛ أي بينهما فرقٌ كبيرٌ، وأسلوب الآيةِ لفٌّ ونشرٌوردَ على طريقِ المقابلةِ المنسُوجةِ بالطّباقِ متضمّنةً أربعة تشبيهاتٍ فلكُلّ فريقٍ تشبيهانِ؛ وقد بدأَ بفريقِ الكُفّارِمراعاةً لما سبقَ مِن تقدُّم ذكرهم، واستعمالُ "مَثَلُ" تشبيهٌ لصفتِهم بالمثلِ من حيثُ غرابتُه وعجبُهُ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ لا يستوي الفريقانِ أبدًا وحالُهما مختلفٌ كُلَّ الاختلافِ؛ والاستفهام للإنكارِوالنّفي، والنّفيُ هنا كنايةٌ عن التّفضيلِ والمفضّلُ معلُومٌ وهو فريق المؤمنين ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتأمّلُون الآياتِ والعبروالأمثالَ أيّها النّاسُ لتحصُل لكم الذّكرى، والاستفهامُ هنا للتّوبيخ أو التّحضيضِ.

٥. نوح وقومه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌمُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَـرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْـلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا

تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾

وبعدَ الذي تقدّم في السّورةِ عن المعرضينَ عمّا يُدعونَ إليهِ والإشادةِ بأهلِ الصّلاحِ؛ و انتهاءً إلى ضربِ مثلٍ في الفريقينِ؛ يُفصّلُ اللهُ و اقعَ حالٍ لذلك في بعضِ قصصِ الأنبياءِ بدايةً من قصّةِ نوحٍ عليه السلام، وقد كان قوم نوحٍ في جنوبي العراق حول موقع مدينة الكوفة حاليا ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ ولقد بعثنا رسُولنا المسمّى "نوحًا" إلى النّاسِ الذينَ عاصرُوه لَمّا فشا فيهم الشّركُ وعبادةُ الأوثان، واللاّمُ في "لقد" موطّئةٌ لقسمٍ؛ والتّقديرُواللهِ لَقد أرسلنا، و افتتحَ القصّةَ بمؤكّدينِ القسمُ و"قد" لشدّ انتباهِ المدعوين إلى ما سيُوردُ من أخبارٍ. فدعاهُم إلى اللهِ قائلاً ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إنّي جئتُكم منذرًا مِن عذابِ اللهِ؛ أحملُ بيّناتٍ واضحةً على دعوتي، أو"مُبينٌ" تنصرفُ إلى الإنذارِفقط أي جئتُكم بإنذاراتٍ صريحةٍ ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أُوجّهُكم إلى عبادةِ الله الواحدِ الصّمدِ وحدهُ، ودعوةُ جميعِ الرُّسلِ قائمةٌ على هذا المنطلقِ والأساسِ المتينِ؛ وأيّ دعوةٍ غفلت عنه أو أنقصت مِن شأنه فلن تجدَ لها عظيمَ ثمرةٍ. فإن أبيتُم إلاّ البقاء على الشّركِ والمعاصي فـ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إنّي أخشى أن يحقَّ عليكم العذابُ المؤلم في الآخرة، وتضمّن خوفُهُ معنى الظّنّ فإنّهُ غيرُموقنٍ بعذابِهم، و أكّدَ كلامهُ بـ "إن" لأنّ المخاطبين منكرُون، ونسبَ الألم إلى اليومِ مجازًا و إنّما هو للعذابِ؛ وكأنّه بلغَ مبلغًا من الألمِ صحَّ معه أن يُسمّى اليوم مؤلِمًا؛ كما عدلَ عن صيغةِ "مُفْعل" إلى فعيلٍ (أليم) للمبالغةِ، ويُحتملُ أنّهُ أرادَ بالعذاب الأليم عذابَ الدنيا بالاستئصالِ والإهلاك؛ وسيأتي: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾.

ويُجيبُ أشرافُ قومِ نوحٍ الباقون على كُفرِهم نبيّهُم عليه السلام قائلينَ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ لا نراكَ إلاّكواحدٍ منّا؛ لكَ ما لنا من الصّفات البشريّةِ من أكلٍ وشُربٍ وسيرٍفي الأسواقِ ونحوِ ذلك، وأوردَ جوابهم مصدّرًا بالفاءِ للتّنبيهِ بأنّهم بادرُوا إلى الردّ عليه؛ وذلك شأنُ من لا يُنصتُ مكابرةً لئلاّ تجدَ الحجّة من قلبِه مستقرًّا، وسُمّيَ الأشرافُ بالملأ لأنّهم يملؤونَ مجالسهم بالرّهبةِ وتمتلئُ عيُونُ النّاسِ بهم ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ ولا نجدُ من اتّبعك إلاّ ويكونُ من سفلةِ القومِ ولا يحظى بمكانةٍ اجتماعيّةٍ عندنا، و"الأراذلُ" جمعُ أرذل أو رذيل وهو الخسيسُ والحقير؛ وذلكَ ظنُّ الذين كفرُوا فيهم و إنّما هم أزكى منهم بالإيمانِ، ومِن خطئهم في الاستدلالِ أنّهم بنوهُ على الرُّؤيةِ البصريّةِ و أنتَ خبيرٌبأنَّ العين لا تصدُق دائمًا ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ وخسّتُهم ظاهرةٌ بدايةً بلا استغراقٍ في النّظرِ؛ على سبيلِ المبالغةِ في الذّمّ، أو بمعنى اتّبعُوكَ من غيرِرويّةٍ وعُمق نظرٍ، والبادي الظّاهرُ انقلبت ياؤُه عن واوٍ من فعل (يبدُو)، والرّأيُ مشتقٌّ من (رأى) وهو نظرُ العقلِ ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾

تأكيدٌ لـ ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ على أنَّ المرادَ بـ"لكم" نوحٌ؛ بمعنى ولا نحسبُ أنّكم تتفوّقُون علينا بأيّ شيءٍ لاستحقاقِ النّبوة والاتّباعِ، أو المرادُ نوحٌ وقومُه معًا، و"فضل" نكرةٌ في سياقِ النّفيِ فأفادت العموم. ويزيدُ الملأُ ارتقاءً في اتّهامهم بقولِهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ بل نحسبُكم مفترينَ على النّاسِ؛ والظّنُ هنا للجزمِ لا للشّكّ، وكلامُهم موجه لنوحٍ ويُحتملُ شموله لقومه أيضًا باعتبارِهم ناشرينَ لدعوتِه معه، وإلى هنا سفّهوا أتباعهُ في مكانتهم وفكرِهم وكذّبُوا دعوته لكي يلتبسَ الأمرُ على بقيّةِ النّاسِ فيرفُضوهم.

ويردُّ نوحٌ عليه السلام عليهم بكُلِّ رويّةٍ مناديًا إيّاهم بما يبعثُ على الشّفقةِ والاستعطافِ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ يا قومِ أخبروني إن حظيتُ ببرهانٍ من اللهِ على ما أدعو إليهِ؛ وتفضّل عليَّ برحمةٍ منهُ؟ وعطفُ إتيانِ الرّحمةِ على البيّنةِ دلَّ على تغايُرٍ بينهما؛ فالبيّنةُ الحجّةُ والرّحمةُ النّبوة والوحي، وتجديد النّداءِ بعنوانِ القومِ فيهِ تلطف بهم واستنزالٌ لطائرِ نفورِهم بأنّهُ واحدٌ منهم لا يُريدُ إلاّ الخير لهم؛ كما أنّهُ عبّر بلفظِ الرّبوبيّةِ ونسبَ كُلاًّ من البيّنةِ والرّحمةِ إلى الرب ليُشعرهُم بتلطّفِه عليهِ ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فخفيَت عليكم دلائل نبوّتي وبراهين الحقّ على رسالتي، وَعُمّيَ على كذا التبس عليهِ ولم يفهمهُ؛ شبّهَ حالهُم بحالِ المتوغّلِ في المسيرِ فالتبست عليهِ السُّبل حتّى ضلَّ، ووظّفَ فاءَ التّعقيبِ تعريضًا بأنّهم سارعوا إلى الإنكارِ ولو تفكّرُوا بتأنٍّ لظهرَ لهم الحقّ، والتّاءُ في "عميت" راجعةٌ إلى البيّنةِ لأنّها أشمل، وهنا طباقٌ رائعٌ حيثُ قابلَ قولهم السّالف ﴿مَا نَرَاكَ﴾ و﴿مَا نَرَى لَكُمْ﴾ بـ ﴿ فَعُمّيتْ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أنُجبرُكم على إدراكِ البيّنةِ وقبُول الرّحمةِ، والحالُ أنّكم رافضونَ لذلكَ؟ والآيةُ بمعنى لا إكراهَ في الدّينِ، والاستفهامُ إنكاريٌ أي لا نقدُم على فعلِ ذلك، والمتكلّمونَ نوحٌ عليه السلام وقومُهُ أو نوحٌ وحدهُ على وجهِ تعظيمِ مقامِ النّبوةِ.

ثمّ يسترسلُ في دعوتِهم ملتزمًا بأسلوبِ النّداءِ الموحي بالاستلطافِ وحبِّ النّصيحةِ ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ليس لي أيّ مطمعٍ ماديٍّ وراء دعوتكم فكُلّ ما أقوم بهِ أبتغي بهِ الثّوابَ الجزيلَ عندَ اللهِ؛ أي علّل بأنّه مخلصٌ في دعوتِه بعدمِ طلبِ المالِ ليستنكرَ عليهم اتّهامهم؛ ثمَّ علّقَ أجرهُ على اللهِ ليتضمّن كُلّ جزءٍ من كلامه دعوةً إليهِ؛ ومن جهةٍ أُخرى لَمّحَ لهم بأنّ ثوابَ التّبليغِ لا يقوى على استيفائِه إلاّ الله. وكأنَّ الملأَ أشارُوا لنوحٍ عليه السلام بأن يُبعدَ الأراذلَ عن مجلسه؛ فردَّ عليهم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولستُ موافقًا على إبعادِ من آمنَ بي مهما كانت حالتُه المادّية والفكريّة، وفي هذا إرشادٌ للدُّعاةِ بألاَّ يلتفتوا إلى عدد الأتباعِ على حسابِ المبادئ التي تبعثُ على وحدتِهم ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ إنّهم سوفَ يلقونَ الله؛ ولقاؤهُ مجازٌ عن العرضِ والحسابِ، وكُلُّ النّاسِ سوفَ يلقونَه؛ وإنّما أشارَ نوحٌ عليه السلام بذلك إلى أنّهم سيُحاسبُونه عند الله إذا ظلمهم بالإبعادِ أو إلى أنّ هؤلاءِ ربّما سيلقونَ الله

فَائزينَ فهم أولياؤُهُ فكيفَ أُبعدُهم؟! ويجوزُ أن تكون ملاقاةً مجازيّةً بحضورِ مجالس الذّكرِ والصّلاةِ على حدِّ حديثِ "أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله إليه"[٤] ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ غيرَ أنّكم تجهلُون لقاءَ الله؛ وقال: "قومًا" إشعارًا بأنَّ قوميّتَهم انطبعت على تلكَ الصّفةِ، أو تجهلُونَ قدرَ المؤمنينَ فتصفُونهم بالأراذلِ وتودُّونَ طردَهم، وهذا أنسبُ للتّفسيرِ الثّاني لـ "ملاقُو ربّهم"؛ وللتّفسيرِ الأوّلِ يُناسبُه قولُ نوحٍ عليه السلام لقومِه مُعتذرًا ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ يا قومِ من يدفعُ عنّي عذابَ اللهِ إن أقدمتُ على إبعادِ المؤمنينَ الذينَ ترونهم أراذل؟ لأنّ ذلكَ أمرٌ مبنيٌّ على تفاضلٍ لا أساس له، والاستفهامُ للإنكارِ أي لا ناصرَ ينصُرني ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتفكّرون فيما اشترطتموهُ من طردِ المؤمنينَ لأجلِ أن تسمعُوا منّي فإنّهُ أمرٌ مرفوضٌ لا يُعقلُ؟ والاستفهامُ إنكاريٌّ توبيخيٌّ. ثمَّ يؤكّدُ نوحٌ عليه السلام لكُلِّ من يُريدُ اتّباعه ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ لا أدّعي بأنّي أملكُ خزائنَ اللهِ لأُغنيكم بما طلبتُم إذا اتّبعتُموني، أو لم أدعُكم لاتّباعي لكثرةِ أموالي؛ ردًّا على قولِهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾، وخزائنُ اللهِ مجازٌ عن رزقِه وبركاته ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ وليسَ لي أيّ اطّلاعٍ على أمورِ الغيبِ؛ نفى عن نفسِه صفةً ربّانيةً لئلاَّ يحسبُوهُ يريدُ زعامةً عليهم؛ ولئلاَّ يطلبوا منهُ ما يعجزُ البشرُ عنه، أو ردَّ عليهم اتّهامهم للذينَ اتّبعُوهُ باديَ الرّأيِ بأنّهُ لا يعلمُ سرائرَهم؛ وسيأتي: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ولا أزعُم أنّي من جنسِ الملائكةِ، وفيهِ ردٌّ على قولِهم الفارط: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ أي إنّي مقرٌّ بأنّي بشرٌ ولستُ ملَكًا! ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ ولا أقُول لمن آمنوا بي واحتقرتُموهُم بأنَّ الله لا يتفضّلُ عليهم فيصيرُوا من خيرةِ النّاسِ مكانةً؛ والمرادُ أنّكم وإن اعتقدتُم ذلك فإنّي لا أقرّهُ، والخيرُ دنيويٌّ مناسبةً لذكرِ الازدراءِ ويُحتملُ أرادَ به الثّواب الأخرويّ، والازدراءُ الاحتقار؛ وإسنادُهُ إلى الأعين تنبيهٌ على أنّه مجرّد وَهمٍ ولو أعادُوا التّأمّل بقلوبِهم بصدقٍ ما ازدروهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الله وحدهُ عالمٌ بما انطوت عليهِ نُفوسُهم من خيرٍ أو شرٍّ؛ وصيغةُ التّفضيلِ "أعلم" هنا ليست للتفضيل؛ لأنه لا يعلم ما في أنفسهم إلا الله، و إنما أريدَ بها أن الله وحده عالمٌ كُلّ العلمِ بما فيها، ولا يبعُد أنّه قال ذلك إشادةً بهم بأنّهم أولياءُ الله، والله وحدهُ يعلمُ مقدارَ ما في نُفوسهم من الخيرِ الذي نفيتُموه عنهم ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وإن فعلتُ ما أخبرتُكم بأنّي لستُ أهلاً لهُ أو قلتُ ما ليسَ لي بهِ علمٌ؛ أصبحتُ من الظّالمينَ لأنفُسهم، وأكّد كلامهُ بثلاثة مُؤكّداتٍ تحقيقًا لظُلمِ من رمى المؤمنينَ بالرّذالةِ، وفي هذا إخبارٌ من نوحٍ عليه السلام لقومه بأنّه معرّضٌ للخطأ، وتضمّنَ الكلامُ تعريضًا لهم بأنّهم ظالمونَ إذ أَتَوا ما لم يحقّ لهم إتيانه.

---

[٤] رواهُ الرّبيع: ك:العلم ،ب: في العلم وطلبه وفضله،ر:٣١(٢٣/١) .

٦. مجادلة الملاء من قوم نوح لنبيهم

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾

وبعدَ ذلكم البيانِ يردُّ الملأُ على نوحٍ عليه السلام ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ يا نُوحُ قد اجتهدت في دعوتك لنا فَأكثرتَ من الكلامِ والمناقشةِ، والجدالُ الخُصومةُ في الكلامِ؛ من جدلَ الحبلَ إذا أحكمَ فتلهُ أو من جدلهُ إذا ألقاهُ أرضًا؛ فالمجادلُ يُريدُ قهرَ خصمه بإحكامِ حُجّته وبإسقاطِ حجّة خصمه، وفي الآيةِ إشارةٌ بديعةٌ بأنّه على الدّاعي ألاَّ يسأم من تجديدِ البيانِ وتنويعهِ حتّى يكونَ السَّأْم من المدعوّ. وحينَ توعّد نوحٌ قومه بالعذابِ في قولِهِ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ طلبُوا منهُ بتهكّمٍ محاولينَ إفحامه ليقفَ عن مجادلتِهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأَلحِق بنا ما توعّدتنا بهِ من العذابِ الماحقِ إن كنتَ صادقًا في دعواكَ! وعلى هذا توقّعُوا عذابًا دنيويًّا حينَ لم يُؤمنوا بالآخرةِ، أو طلبُوهُ توهّمًا بأنّهُ مستحيلٌ. ويُجيبُهم نوحٌ عليه السلام بنفسِ المنطقِ السّالفِ بردِّ الأمرِ إلى الله ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ إنّ العذاب الذي أتوعّدُكم بهِ في علمِ اللهِ سيأتيكم متى شاءَ الله مجيئه، بمعنى أنّ العذاب ليسَ بيديّ وعلمه ليس لديّ والتّعجيلُ بهِ ليس من شأني. ولئلاَّ يُفوّت النّصحَ المناسبَ لهم قال: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ولستُم بفارّينَ من قبضةِ اللهِ إذا أرادَ أخذكم ولا تقوون على ردِّ عذابِه إذا جاءكم ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ ولا تستفيدُون من دعوتي لكم إلى اللهِ مهما اجتهدتُ في دعوتكم؛ إذا سبقَ في علمِ اللهِ أنّكم أهلُ الغوايةِ والضّلالِ، ولعلّهُ صحّح لهم بذلك أنّه لم يكن يُحيي جدالاً بدعوتِه بل كان ينصحُ، ونسبُ الإغواءِ إلى اللهِ بمعنى أنّه يخذُلُ الشّقيَّ فيتسلّطُ الشّيطانُ لغوايتِه عدلاً منهُ لِما علمَ من حالِه ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الله الذي أعبُدُهُ ربّي وربّكم أيضًا وستعُودون إليهِ بعدَ الموتِ ليُحاسبَكم.

ويلتفتُ بالكلامِ إلى المشركينَ في عهدِ مُحمّدٍ ﷺ ليقُول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أيقُولُ المشركونَ اخترعَ مُحمّدٌ القرآن من عندِه؟ والاستفهامُ للتّعجيبِ من حالِهم، ويُحتملُ أنَّ الكلام لا يزالُ في قومِ نوحٍ والمعنى أيدّعُون أنَّ نوحًا افترى ما يُخبرُهم بهِ؟ أجبهم: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ إن كذبتُ عليكم في شيءٍ مما أدعوكم إلى اعتقادِه أو فعلِه فذنبُ الافتراءِ لا يكونُ إلاَّ عليَّ، والإجرامُ كسبُ الجرمِ وهو الذّنبُ ﴿وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ كما أنّي لستُ متحمّلاً شيئًا من شرككم وتكذيبكم؛ وكُلّ ما اقترفتُموهُ

يعودُ ضـرّه عليكم؛ و أنا بريءٌ مما تنسـبُونه إليَّ، وجعلَ إجرامهُ افتراضًـا بدليلِ "إن" بخلافِ إجرامهم فإنّه حقيقيٌّ و اقعٌ.

٧. صناعة نوح للفلك وسخرية قومه منه

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْـنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْـنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَـخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْـخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْـخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْـخَرُونَ (٣٨) فَسَـوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩)﴾

وبعدَ جدالِ نوحٍ الطّويلِ لقومِه يقطعُ الله أمامه مطمعَ إيمانهم ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ وأخبرنا نوحًا عليه السلام بأنّهُ ليسَ في قومكَ من سيُؤمنُ بكَ بعدَ الطّائفةِ التي صدّقتكَ و اتّبعتكَ أي نفى نشـوءَ إيمانٍ ممن لا يزالُ مصمّمًا على الكُفرِ أو متردّدًا في الإيمانِ؛ و أفادت "لن" إيَّاسا وتأبيدًا؛ أمّا من آمن قبلاً فهو لا يزالُ يُؤمنُ بهِ ويُصـدّقُه كلّما لزم التّصـديقُ. ولَمَّا كان هذا الخبرُ شـديدَ الوقعِ على نوحٍ سـلاّهُ بقولِه: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فلا تجلب لنفسـكَ بُؤسًـا إذا ما شـاهدتهم باقينَ على كُفرِهم القديم وتكذيبهم، و"تبتئس" من البُؤسِ وهو الضّـررالنّاتج عن الهمّ والحزن. ويُسـلّي الله رسُـوله نوحًا عليه السلام بصـنعِ السّـفينةِ لِبدايةِ تحوّلٍ جديدٍ في مسـارِدعوتِه ﴿وَاصْـنَعِ الْفُلْكَ﴾ و أنجز السّفينةَ التي ستحملُك أنت ومن آمن؛ والفُلك السّفينةُ؛ يُطلقُ على المفردِ والجمع والمرادُ بهِ هنا سفينةٌ واحدةٌ، ثمَّ يُطمئنُ الله نوحًا عليه السلام بأنّه لن يجدَ مشـقّةً في صـناعتها؛ يحفظُه ممن دأبُه أن يكيدَ له ويُعلّمُهُ كيفَ ينجزُها ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ ونحنُ معكَ بالتّأييدِ والحفظِ نُعلّمُك ما لم تعلم لتقوى على إنجازها، و"بأعيُننا" أي بحفظِنا وعلمنا فالعينُ اسـتعارةٌ للحفظِ والعلم، وجاء بها جمعًا مبالغةً في الحفظِ والعلمِ، واحتملَ بعضٌ أنّه أراد بها الملائكةَ أو جندًا من جُندِه سـمّاهُم بذلكَ تشـبيهًا لهم بالأعيُن في الحفظِ، ودلّ عطفُ "اصنع" على "أوحيَ إلى نوحٍ" وتجدّدُ الوحيِ هنا أنَّ نوحًا لم يَعهَد صناعةَ أفلاكٍ مع تعميرِه وقد تلقّى ذلك من ربّه ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تكلّمني في شأنِ نجاةِ الكُفّارِ أو إمهالهم؛ فَالنّهيُ هنا مقتصرٌعلى مسألةِ الشّفاعةِ فيهم مناسبةً للسّياقِ؛ وعلى هذا يتضمّنُ دليلاً بأنّ النّبي ليس من شـأنه أن يشـفع للعصـاةِ، ولا يلزمُ منه أنّ نوحًا عليه السلام كان يُخاطبُه فيهم فنهاه؛ فذلك كمن يقُول: دعوني أضـرب كذا وليسَ ثمّةَ مَن مَنَعَهُ ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ فإنَّ نهايتهم الغرق في الطُّوفان لا محالة، وعبّر بالجملةِ الاسـميّةِ عن إغراقِهم و أكّدهُ لإفادةِ تحقّقِه ﴿وَيَصْـنَعُ الْفُلْكَ﴾ ويشـرعُ نوحٌ عليه السلام في إنجازِ السّـفينةِ التي أمرهُ اللهُ بإنجازِها؛ وعبّربالمضـارع عن حالٍ مضت لاسـتحضـارِها ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ

قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ وكُلّما مرّت عليهِ جماعةٌ من ساداتِ قومِه استهزؤوا بهِ؛ كيفَ كان قبلُ نبيًا يدعونا فتفرّغَ لصناعةٍ لا تعنيه؟ وسخريتُهم أوسع من هذا، والظّاهرُ أنّه أنجز السّفينة في موضعٍ قريبٍ منهم وكانوا بعيدينَ عن الموانئ والبحار. أجابهم نوحٌ عليه السلام ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ إن تستهزئوا بنا اليومَ فإنّا سنستهزئ بكم فيما يأتي لَمّا تغرقُون أو حينَ تكبُّون في جهنّم، أو السّخريّتانِ في زمنٍ واحدٍ؛ على أنّ سُخريّة النّبي ليست من جنسِ سُخريّتهم فهي تهوينٌ من عقولِهم وتسفيهٌ لكُفرِهم ونحوِ ذلك، وضمَّ المؤمنينَ معهُ إشعارًا بمكانتِهم في قلبِهِ ولاحتمالِ قيامهم معه بإنجازِ السّفينةِ، أو عبّر بالجمع عن نفسه تعظيمًا لمقامِ النّبوةِ ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ احترازٌ من نوحٍ عليه السلام بأنّه لم يظلمهم وإن كانوا كُفّارًا بل عاملهم بالمثلِ، والسّخريّةُ تعجّبٌ خالطهُ احتقارٌ؛ ومعناها قريبٌ من الازدراءِ الذي سلفَ الحديثُ عنه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ وسوفَ تُدركون عن يقينٍ وبصيرةٍ الذي يستحقُّ العذابَ المذلَّ القاهر جزاءً لعلّوِّه وكبريائهِ؛ وهو الطّوفان الذي سيستأصلُهم، وفي هذا وعيدٌ صارخٌ شديدٌ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ويثبُت عليهِ العذابُ الدّائم في نار جهنّم؛ والمقيمُ عكسُ الفاني والمنقضي، وقيلَ: يحِلُّ بمعنى يجبُ ويحُلُ بمعنى ينزلُ؛ وكلاهما جائزٌ في المعنى.

٨. إهلاك قوم نوح بالطوفان، وقصته مع ابنه

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾

وبعدَ بلاغِ نوحٍ عليه السلام لقومه بشتّى الأساليبِ؛ وبعدَ الوعيدِ الذي أنذرَهم بهِ جاءَ موعدُ هلاكِهم؛ والذي قال الله فيه ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ ويصنعُ نوحٌ عليه السلام الفلكَ حتّى إذا قدمَ ما توعّدهُم الله بهِ وظهرت أمارتُهُ وهيَ أن يفُورَ التّنّور، والتّنّورُ موضعُ إيقادِ النّارِ على المشهورِ؛ وهو لفظٌ معرّبٌ أو تفعُّلٌ من النُّور؛ والمختارُ أنّه للجنسِ أي لم يتفجّر تنّورٌ معيّنٌ بل تفجّرت تنانيرُ:كُلٌّ وموضعُها، وقال بعضٌ: هو وجهُ الأرضِ عمومًا تفجّرَ بالماءِ، وكُلّ ذلك إذا حملنا المعنى على الحقيقةِ أمّا على المجازِ فيكونُ مثلاً ضربهُ لبلوغِ الشّيءِ أقصاهُ؛ كقولنا بلغ السّيلُ الزّبى، وأضافَ الأمرَ لضميرِ الجلالةِ (أمرنا) لتهويله، وعبّر بالفورانِ تشبيهًا لذلك بارتفاعِ الماء في القدرِ بالغليانِ؛ والفائرُ الماء وأسند الفعل إلى التّنّورِ مجازًا،

وقد جعلَ الله ذلك علامةً لنوحٍ عليه السلام ليركب هو ومن آمن معهُ على السّفينةِ؛ وهي أمارةٌ سبقت ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر ١٢] ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وقد أمرنا نوحًا عليه السلام بأن يصحبَ معهُ إلى السّفينةِ الذّكر وأنثاهُ من كُلِّ صنفٍ حيوانيٍّ وجَدَهُ، والزّوجُ واحدُ كُلِّ نوعٍ؛ فعبّر بالمثنّى ثمَّ قال "اثنينِ" احترازًا من واحدٍ أو من زيادةٍ على اثنينِ تُثقلُ السّفينة، وليس المرادُ بذلك منع انقراضِ الحيواناتِ فالله قادرٌ على حفظِ كُلِّ مخلوقٍ أو إعادةِ جنسِه؛ كما هو قادرٌ على إنجاء المؤمنينَ ولو بدونِ سفينةٍ؛ وإنّما أرادَ أن يُربّي عبادهُ على تعلّمِ حفظِ النّوعِ الحيوانيّ وعلى سلوكِ الأسبابِ عامّةً ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ وأمرناهُ بأن يأخُذ معهُ في السّفينةِ أهلَ قرابتِه باستثناءِ من سبقَ في علمِ اللهِ بأنّهُ شقيٌّ كامرأتِه وابنِه ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ ويحمل معهُ أيضًا كُلَّ من آمنَ بهِ. ومن لطيفِ أسلوبِ القصّةِ القرآنيّةِ أنّ القارئَ سيستغربُ مِن حجمِ السّفينةِ كيفَ ستحملُ كُلَّ ذلك فيُعقّبُ: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولم تكن مع نوحٍ عليه السلام إلاَّ قلّةٌ مؤمنةٌ، وفي هذا أيضًا تربيةٌ عظيمةٌ للدُّعاةِ بأن يصبرُوا مع الدّعوةِ فإنَّ مدّةَ إقامةِ نوحٍ مع قومِه حين لا تُثمرُ إلاَّ قلّةً لا يعني ذلكَ أنَّ نوحًا قصّرَ؛ فالأمرُ متعلّقٌ بالجهدِ ونوعِه لا بالنّتيجةِ.

ثمَّ يحكي الله مشهدَ نوحٍ عليه السلام وهو يُوجّهُ رُكبانَ السّفينةِ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ اصعدُوا إلى متنِ السّفينةِ ذاكرين اسمَ اللهِ مستشعرينَ رحمتهُ بكم كُلّما جرتِ السّفينةُ إلى أن تحطَّ بكم في برّ الأمانِ، و"مُرسى" مِن جعلِ الشّيءِ راسيًا أي مستقرًّا؛ أما "مَرسى" بفتحِ الميمِ فهو لموضِع الرُّسوّ ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إنّ الله واسعُ المغفرةِ عظيمُ الرّحمةِ بكم يا أهلَ الإيمانِ؛ وهذا تطمينٌ لقلوبِ من آمن معهُ في موقفٍ ملؤهُ الخوفُ والأهوالُ؛ وأكّدهُ بـ"إنّ واللاّم" لإفادةِ التّحقّق والثّبوت. وهكذا شيئًا فشيئًا قويتِ المياهُ وغمرت كُلَّ سهلٍ ومرتفعٍ ويصفُ اللهُ حالَ السّفينةِ بأنّها ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ تسيرُ بهم وسطَ الأمواجِ العاتيةِ المتلاطمةِ كأنّها الجبالُ في الحجمِ والارتفاعِ، وفي هذا ما دلَّ على ريحٍ معها أو زلازل إذ الأمواجُ تنتُجُ عنها، وهو تشبيهٌ بديعٌ حيثُ إنَّ المياهَ الطّوفانيّةَ تأخُذ لونَ الأتربةِ التي تأتي عليها فإذا ماجت شكّلت هياكلَ كأنّها جبالٌ، وجاءَ "تجري" بالمضارعِ لتقريبِ مشهدِها واستحضارِه ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ وقبل اشتدادِ الأمواجِ نادى نوح عليه السلام ابنهُ الذي بقيَ على الكُفر وكانَ معتصمًا بمرتفعٍ لم يصل إليهِ الماءُ، أو ذكرَ المعزِل تعليلاً لتخصيصِ ابنِه بأمرِ الرُّكوبِ فقد كان في موضعٍ لم يبلُغه فيه الخطاب ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ اصعد معنا إلى سفينةِ النّجاةِ ولا ترضَ بمجاورةِ الكُفّارِ؛ أي وجّهه إلى أنّ شرطَ الرُّكوبِ هو الإيمانُ أوّلاً، و"بُنيّ" تصغيرٌ لابنٍ مع إضافتِه لياءِ المتكلّم؛ ونُكتتُه هنا الشّفقةُ وإظهارُ الرّحمةِ، وثمّةَ من قال: لم يكن نوحٌ يعلمُ بأنّ ابنهُ كافرٌ لعلّه لتظاهره بالإيمانِ ولو علمَ لم يُنادِه. ويسمعُه ابنُهُ ويعي مرادَ أبيهِ فيُجيبُهُ: ﴿قَالَ

سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ سأفرُّ إلى قمّةِ جبلٍ تقيني من الغرقِ، والعاصمُ الواقي والمانع. ويقولُ لهُ نوحٌ عليه السلام ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ لا ينجّي الله اليومَ من الغرقِ إلاَّ من رحمهُ فكانَ مؤمنًا، وعبّر عن الطّوفانِ والغرقِ بـ"أمرِ الله" أكثر من مرّةٍ تعليمًا لنا بألاَّ ننسب هذهِ الحوادث إلى الطّبيعةِ أو إلى الأسباب ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ وبينما كان نوحٌ عليه السلام يُحاورُ ابنهُ فصلَ بينهما حاجزٌ من الموجِ فغرقَ ابنُه ولحقَ بالهالكين، وفي هذا تصويرٌ قرآنيّ عجيبٌ لحال الدّاعي الغيورِ على المدعوّ أو بالأحرى لحالِ الوالدِ مع ابنِه بالنّصحِ وحُبِّ الخيرِ إلى اللّحظةِ الأخيرة، وجُوِّزَ عودُ الضّميرِ في "بينهما" إلى الابن والجبلِ بأن غرقَ قبل أن يصل إليه.

وبهلاكِ آخرِ من حُكم عليهم بالهلاكِ جاءَ أمرُ الله إلى الماءِ بأن يتوقّفَ ويغورَ ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ وقلنا للأرضِ امتصّي ما على وجهِكِ من الماءِ، ويا سماءُ توقّفي عنِ صبِّ الماءِ، والأمرُ للأرضِ والسّماءِ هنا تكوينيٌّ وليسَ تكليفيًّا، وبين "أرضُ وسماءُ" ثمّ "ابلعي و أقلعي" محسّنُ الطّباقِ والجناس، والبلعُ استعارةٌ لحالِ الإيصالِ إلى الجوفِ من غيرِ معالجةِ المضغِ تلميحًا بأنّ الماء لم ينقص بجفافٍ ونحوِهِ بل ابتُلع ابتلاعًا؛ وبدأَ به لأنّه السّببُ الأساس لنقصِ الماء ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ والجوديُّ: جبلٌ قُبالة جزيرة ابن عمر، عند ملتقى الحدود السورية التركية، على الضفة الشرقية لنهر دجلة، و انخفضَ مستوى الماءِ بذهابِه في أغوارِ الأرض، و انتهى أمرُ إهلاكِ الكافرينَ وتنجيةِ المؤمنينَ، ورست سفينةُ نوحٍ عليه السلام على جبلٍ اسمه "الجوديّ"؛ وفي هذا المقطعِ من الآيةِ براعةٌ في الإيجازِ والوقوفِ على شاهِدِ القصّةِ؛ وهكذا منهجُ القرآنِ في سردِ القصصِ، وغيضَ من غاض غَيْضًا إذا نقصَ ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هلاكًا وخسارًا لكلِّ ظالمٍ، وذكرهم بوصفِ الظّلمِ بيانًا لعلّةِ هلاكِهم تأكيدًا لـ ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وليُخوّفَ بالإبعادِ من رحمتِه كلّ ظالمٍ[٥].

٩. نجاة نوح ومن آمن معه من الغرق، وتوسله إلى ربه في شأن ابنه

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ

---

[٥] ولا يفوتُنا أن ننبئ القارئ الكريم إلى ما تضمّنته الآيةُ ٤٤ من سورة هود من أسرارٍ بلاغيّةٍ عجيبة؛ حتّى حملت كبار المفسّرين كالزّمخشريِّ في الكشّاف وأبي حيّان في البحر المحيط وابن عاشور في التّحريرِ والتّنويرِ وغيرهم؛ على تتبّعِ ما فيها؛ فسجّلُوا ما يُعربُ عن عظمةِ القرآن وروعةِ بيانه؛ ما يزيدُ المرءَ يقينًا بأنّه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.

الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾

وبعدَ رُسوِّ السّفينة وغرقِ الكافرينَ أرادَ نوحٌ عليه السلام أن يُخاطب الله بتوسّلٍ في شأنِ ابنِه الذي أخذهُ الطُّوفان شأنَ من يُريدُ معرفةَ مصيرِ الهالك المبهم ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فقال: يا ربّ إنَّ ولدي الذي غرقَ في الطّوفان من جُملةِ أهلي الذينَ أمرتني أن أحملَهم في الفلكِ لينجوا من الهلاكِ، ويُحتملُ أنّ هذا النّداء كان في وقتٍ أمكنت فيهِ نجاةُ ابنه –كما ذهبَ إلى ذلك كثيرٌ من المفسّرين- إلاَّ أنّه لا ينسجمُ مع تسلسلِ القصّةِ ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ وإنَّ وعدكَ الذي وعدتني بهِ بأن تُنجّيني وأهلي حقٌّ لا يتغيّر، وإنّك يا ربِّ حكيمٌ عادلٌ فيما قضيتَ وأردتَ ولا أحَكم منكَ، ومن بابِ الأدبِ فقد اقتصرَ نوحٌ عليه السلام في دُعائه على ما يُعرّضُ بهِ على المطلوبِ؛ بتقديمِ عذرِهِ في الدّعاءِ بأنَّ ابنهُ من أهلِه وختمِه بعظيمِ التّنزيهِ؛ ففي هذا دليلٌ على أنّ إقدامه على هذا السّؤال كان على وجلٍ واستحياءٍ.

يُجيبُ الله نبيّهُ نوحًا ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يا نوحُ إنّ ولدكَ الذي أغرقتُه ليسَ من أهل دينكَ الصّالحينَ وإن كانَ من صُلبكَ، وأكّد له ذلك إثباتًا للعكسِ الذي غفلَ عنه، وليسَ في الآيةِ ما يكشفُ عن غضبٍ أو تعنيفٍ؛ بل بالعكسِ فقد سبقَ ما يوحي بالتّلطّفِ والتّشريفِ بالإضافةِ إلى عنوانِ الرُّبوبيّةِ في: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾. ويُعلّلُ الله لنوحٍ عليه السلام عدم كون ابنِه من أهلهِ ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ إنّ ولدكَ لم يكن صالحًا لأنّهُ أصرَّ على العصيان وماتَ عليهِ؛ وقال: (عَمَلٌ) فوصفه بذات العمل مبالغةً أو بتقديرِ مضافٍ أي عملهُ غيرُ صالحٍ؛ وفي قراءة: (عَمِلَ)، فعمله غير الصالح ـــ الذي لم يفصله لنا القرآن ـــ نتج عنه الامتناع عن رُكوبِ السّفينةِ، وليسَ بعيدًا أن تكونُ امرأةُ نوحٍ الكافرة قد أثّرت على الابنِ مع كونِ الأبِ نبيًّا فتكونُ الآيةُ شاهدًا على أثرِ الأمِّ على ولدِها في التّنشئةِ، أو هاءُ "إنّهُ" تعودُ لعملِ نوحٍ فلقد سبقَ أن نهاه الله: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذينَ ظَلَمُوا﴾. ولكن الأظهر أن الهاء تعود لابن نوح؛ لأنه آخر مذكور في قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ، والآية تؤكد مبدأ الولاية في الدين وأن المعصية ورفض امتثال أمر الله سبب لانقطاع الولاية الدينية الخاصة، وإن بقيت الولاية العامة التي يستحقها كل موحد، ويُعاتبه الله بسببِ ما طلبهُ ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فلا تسألني يا نوحُ في أمورٍ ليسَ لك حظٌّ من العلمِ فيها، والسّؤالُ من البديهيّ أن يكونَ فيما لم يُعلم بعدُ؛ وإنّما نهاهُ الله أن يسألَ عمّا أصلُه أنّه لا يسأل عنه حتّى يُخبرهُ الله؛ فإنّ مصيرَ ابنِه الشقاءُ في علمِ الله ؛ فحينَ سألَ ما يُوحي بالشّفاعةِ في حقّهِ فقد سألَ من اللهِ ما لا يجوزُ أن يقعَ ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ إنّي أرشدُكَ

لئلاَّ تكونَ من طائفةِ الجاهلينَ بسؤالكَ عمّا لا يجوزُ السّؤالُ فيهِ؛ وبعدمِ التّثبّتِ قبل الإقدامِ، والجاهلُ في التّعبيرِ القرآنيّ كثيرًا ما يردُ عن المندفعِ إلى الباطِل كما هنا، والآيةُ دليلٌ على إمكان نسيانِ النّبي أو تركه الأولى في حقه دون أن تكون دليلاً على أنّه قد عصى لأنّ مقامَ الأنبياءِ أولى وأحقّ بالاحترازِ فيهِ. ويُسارعُ نوحٌ عليه السلام بالرّجوعِ إلى ربّه معتذرًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ربِّ أنّي أطلبُ السّدادَ منكَ والتّوفيقَ لكي لا أعودَ مرّةً أُخرى إلى ما نهيتني عنهُ، وفي هذا إتيانٌ بشرطٍ أساسٍ في التّوبةِ بعدَ المسارعةِ وهو العزمُ على عدم العودةِ. ثمَّ يسألُ نوحٌ المغفرةَ والرّحمةَ لاكتمالِ توبتِه ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْلِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وإذا لم تعفُ عنّي يا الله وتقبلني تائبًا لا جرمَ أنّي سأُصبحُ خاسرًا فأهلك، وجواب الله تعالى على طلب نوح المغفرة والرحمة لم يرد و إنّما فُهم من تلطّفه به في قولِه الآتي ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾.

ثمَّ يأتي إلى آخرِ مشاهِد قصّةِ نوحٍ مع قومِه والتي تُعدُّ أطول قصة وردت متصلةً في موضعٍ واحدٍ في القرآن ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾ وأمرنا نوحًا عليه السلام بأن ينزلَ من السّفينةِ يصحبُه سلامٌ من اللهِ وأمانٌ؛ وتنزلُ عليه رحماتٌ إلهيّةٌ في معاشِهِ ومعادِهِ؛ والتّوجيهُ بالهبوطِ كانَ إلى أرضٍ قد خلت من أولي الشّركِ والعصيانِ، والأنسبُ أنّ السّلام هنا للتّحيّة لما جاء في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصّافاتِ ٧٩] ولاشتهارِ ارتباطِ الدّعاءِ بالبركةِ مع السّلامِ في ألفاظِ التّحيّةِ ﴿عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ ذلكَ الفضلُ لكَ يا نوحُ ولكُلِّ أمّةٍ تفرّعت من القلّةِ المؤمنةِ التي معك إلى يومِ القيامةِ، والآيةُ من قبيلِ الوعدِ الإلهيّ بالامتنانِ على من آمنَ بالخيرِ والتّمكينِ. ويُقابلُ ذلك ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ وأُمم أُخرى تتفرّعُ عمّن معكَ إلى يومِ القيامةِ لا تكُونُ على نهجِ الإيمانِ؛ سنترُكهم يحيونَ ويُمتّعُونَ بالحياةِ ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثمَّ نستأصلُهم بالعذابِ الشّديدِ المؤلم؛ والعذابُ هنا دنيويٌّ لأنّهُ وصفهُ بالمسّ، ولعلَّ من هذهِ الأممِ ما سيُوردُ من قومِ هودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وموسى، وجاءَ بـ"منّا" هنا مقابلةً لما سبقَ ليُنبّه على أنّ كُلاً من الخيرِ والعذابِ من اللهِ.

ثُمّ يلتفتُ بالخطابِ إلى الرّسُول مُحمّدٍ ﷺ ممتنّا عليهِ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ تلكَ الأخبارُ التي ننبئُك بها بعضٌ من أخبارِ الغيبِ التي لا يعلمُ حقيقتَها إلاَّ الله ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ لم تكن أيّها الرّسُول ﷺ ذا علمٍ بها أنت ولا أحدٌ من قومِك من قبل أن يوحى إليكَ هذا القرآن؛ أو من قبل هذا الوقت فإنّ موضع قصّةِ نوحٍ هنا شملت مالم يرد في باقي المواضع، وقد أشاد بهذا بعظمةِ القرآنِ في كشفِه عن أخبارٍ غابرةٍ؛ كأنّه قال: كلّ قومك لم يعلموها فكيف بك أنت لولا الوحي! ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فاصبر أيّها الرّسُول ﷺ على ما تُلاقيهِ من الإعراضِ فإنَّ النّهاية المحمودةَ في الدّنيا لمن خافَ اللهَ وعملَ بأمرِه، والعاقبةُ الحالُ التي تعقُبُ حالةً أُخرى، وهذا من

لطيفِ التّسليةِ ولقد جاءَ بطريقةٍ بديعةٍ مع ختامِ قصّةِ نوحٍ عليه السلام متضمنًّا دعوةً للاعتبارِوإرشادًا إلى أعظمِ خُلقٍ للدّاعي وهو الصّبر.

١٠. هود وقومه

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾

وبعد قصّةِ نوحٍ عليه السلام يأتي إلى قصّةِ هودٍ عليه السلام مع قومِه؛ وهو النّبي الذي حملتِ السّورةُ اسمهُ لقصّتِه هذهِ: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ولقد أرسلنا إلى قومٍ عُرفوا باسمِ "عاد" رسُولاً منهم اسمُه "هودٌ" عليه السلام، وكانت مساكنُ عادٍ في أرضِ الأحقاف شمال حضرَموت، والآيةُ عطفٌ على ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [هود ٢٥] من باب عطفِ القصّةِ على القصّةِ، وأخو القبيلةِ الواحدُ منها كما يُقالُ: يا أخا العرب للواحدِ العربيّ؛ فهي أُخوّةُ نسبٍ وجنسٍ لا أُخوّة دينٍ. ونادى هودٌ قومهُ إلى التّوحيدِ قائلاً: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يا قومِ أذعنُوا للهِ العظيمِ وحدهُ، وهكذَا تتوحّدُ مهمّةُ الرُّسلِ في توجيهِ النّاسِ إلى عبادةِ اللهِ الواحدِ وتركِ ما سواهُ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢٥]. ثمَّ يُشنّعُ هودٌ عليه السلام على قومِه شركهم بقولِه: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ليسَ لكم معبُودٌ سوى الله الواحد يستحقُّ العبادةَ، و"إلهٌ" نكرةٌ في سياقِ النّفي فتُفيدُ عموم الآلهة. ثمّ يزيدُهم هودٌ عليه السلام توبيخًا و إنكارًا حينَ يقُولُ لهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ليس لكم فيما أنتُم عليهِ من عبادةِ الأوثانِ إلاَّ الكذب على الله وعلى أنفُسكم؛ وكذبُهم بالاعتقادِ الخاطئ والقولِ الباطِلِ والفعلِ المحرّمِ كأن يعتقدُوا بأنّ آلهتهم تنفعُهُم ويقرُّوا بأنّها ستشفعُ فيهم ثمَّ يعبُدونها ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ يا قومِ لا أطلُبُ من جرّاءِ دعوتِكم مقابلاً، و"عليه" تعودُ إلى كُلِّ قولٍ دعاهُم بهِ هودٌ عليه السلام، ولا يلزمُ من هذا أنّ القومَ ظنُّوا أنّه يريدُ عِوَضا ماليًّا فأجابَهم؛ بل هو منهجٌ التزمهُ كثيرٌمن الأنبياءِ إظهارًا لدعوتِهم المحضة ودفعًا لأيّ شُبهةٍ في أهدافِها ومقاصِدها، وشملَ الأجر العِوض المادّي كالمال؛ والمعنويّ كالسّيادة لأنّها سببٌ إليهِ ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إنّما أجري الحقيقيّ أنالُهُ من اللهِ الذي خلقني؛ بمعنى بما أنّهُ خلقني فقد تكفّلَ بكُلِّ رزقي ولا أنتظرُ شيئًا منكم فاعتمادي عليهِ، أو بمعنى ولو دفعتُم لي أجرًا فلن تفُوا بما أعدَّ الله للدّاعي إليهِ، وتوظيفُ الاسمِ الموصولِ بدلَ الاسمِ العلمِ لزيادةِ تحقيقِ الأمرِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هلاَّ تفكّرتُم مليًّا في الأمرِ لتفهموا أنّي لا أُريدُ إلاَّ النّصحَ لكم؛ والاستفهامُ أرادَ بهِ الإنكارَ والتّقريعَ ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ ويا قومِ اطلبُوا المغفرةَ من اللهِ على شركِكم لئلاَّ يُؤاخذكم عليهِ؛

وطلبُ المغفرةِ هنا يُؤوّلُ بأنّه الاستعانةُ باللهِ للخروجِ من الشّركِ إلى الإيمانِ لأنّ الشّركَ يُغفرُ بالإقلاعِ عنهُ، وجدّدَ النّداءَ بعنوانِ "يا قومِ" أكثرمن مرّةٍ تمعّنًا في استعطافِهم إلى الحقّ بأنّهُ ما هو إلاّ عضوٌ من جسدِ قومه يُريدُ الخيرَلهم ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ و أقبلُوا إليهِ تائبينَ بالالتزامِ والطّاعةِ، و"ثُم" هنا ليست لتراخي الزّمانِ لأنّ الاستغفاروالتّوبة قد يجتمعانِ أو يسبقُ أحدُهما الآخر﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ يفتح عليكم من بركاتِ السّماءِ فتنزل عليكم الرّحمةُ التي تسقي زُرُوعكم وبهائمكم، والتّعبيرُ بـ "السّماء" مجازٌوالمرادُ المطرُ؛ وهذا من بابِ تسميةِ الشّيءِ باسمِ مصدرِه، و"مدرارًا" لفظٌ وُضع للمبالغةِ من دَرَّيَدِرُّدُرورًا إذا أكثرمن العطاءِ، والآيةُ بيانٌ لأثرِالاستقامةِ في استجابةِ دُعاءِ طلبِ نزولِ الغيثِ ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ ويزدكم الله ما تزيدُ به قوّتُكم؛ من قوّةِ البدنِ لأنّ الأوضاع ستسلمُ من الفقرِ والمجاعة؛ ومن قوّةِ المالِ لأنّ الاقتصادَ يقُوم على الخصبِ والرّخاءِ؛ ومن قوّةِ البنينَ كما جاءَ في قصّةِ نوحٍ عليه السلام: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح ١٢]، ولقد ناسب هذا قولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصّلت ١٥] فكأنّه قال لهم: أزيدُكم مما تظنّونَ أنّكم بلغتُم ذروته ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ وأنهاكُم أن تُعرضُوا عن دعوةِ الحقّ و أنتُم مصرّونَ على المعاصي والآثام، وأصل التولي: الانصراف. وهو هنا مجازعن الإعراض عن قبول أمر الله.

١١. مجادلة قوم هود لنبيهم

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾

وبعدَ بيانِ هودٍ عليه السلام لقومِه الذي جاءَ بيّنًا في لفظِهِ منوّعًا في دلالاتِه ردُّوا عليهِ: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ يا هودُ لم تأتنا بأيّ بُرهانٍ على صدقِ ما تدعو إليهِ؛ و"بيّنةٌ" نكرةٌ في سياقِ النّفي فتعمُّ، وفي هذا كذبٌ واضحٌ منهم لحبّهم أن يبقوا راكبينَ لأهوائهم، ونادوهُ بحرفِ النّداءِ مع اسمهِ الظّاهرِ كأنّهم أنزلوهُ منزلةَ البعيدِ الغافلِ فاحتاجَ إلى تنبيهٍ ليهتمَّ بما يقولونه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ ولسنا نُفكّرُفي تركِ معبُوداتنا من أجلِ كلامِكَ الذي دعوتنا بهِ، و"عن" هنا للمجاوزةِ مثل التي في: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف ٨٢] أي بفعلٍ ناشئٍ عن أمري ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولسنا مصدّقينَ لك مهما دعوتنا؛ وفي هذا الاعتراض المباشرِ منهم تقنيطُ هودٍ عليه السلام من إيمانِهم؛ تضمّنَ صورةً من جفاءِ

طبعِهم وغلظةِ قلوبِهم. وزادُوا اعتراضًـــا بأن بيّنوا علّةَ عدمِ إيمانِهم بما يدعوهم إليهِ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ لسنا نرى من شيءٍ بكَ يا هودُ سوى أنَّ بعضَ آلهتنا قد تعرّضت لك بشرٍّ لمّا نهيتنا عن عبادتِها، والاعتراء الإصابة والمسّ، ونسبُوا الاعتراء إلى البعضِ تلميحًا له وتهديدًا لغيرِه بأنّه لو تعرّضت له كُلّ الآلهةِ لأصابه أمرٌ مهولٌ لا يُتصوّرُ، وعبّرُوا بعمومِ السّوءِ تنبيهًا بأنّه جزاءٌ من جنسِ عملهِ ولعلّهم قصدُوا بهِ الجنون خاصّةً، وفي هذا دلالةٌ على جهلِهم وسفاهتِهم إذ ظنُّوا أنَّ أوثانهم تضرُّ.

فأجابَهم هودٌ عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ إنّي أدعو الله أن يكونَ شهيدًا على ما استقرَّ في نفسي من الإيمانِ والتّوحيدِ؛ وليسَ أعظم من اللهِ شهادةً! وإشهادُ الله في أمرٍ يُرادُ به تأكيدُهُ؛ فهو كالقسمِ من حيثُ مؤدّاهُ، وتعظيمُ الله في هذا المقامِ تحطيمٌ لتماثيلِ أصنامِهم التي رسخت في قلوبِهم ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ و انظُرُوا حالي ببصيرةٍ تشهدُوا أنّه ليسَ لي حظٌّ من شرككم الذي اتّخذتموهُ فعبدتُم غير الله؛ أرادَ هودٌ عليه السلام بشهادتِهم عدم المبالاةِ بهم، ولمّا كان قومُه مشركين والمقامُ مقام دعوةٌ إلى معرفةِ الله وتعظيمِه كان من اللّطِيف عُدوله عن قول: "إنّي أُشهدُ الله وأُشهدُكم" لئلاَّ يُساويهم بهِ ولأنّ العدوَّ لا يُؤتمنُ في الشّهادةِ. ثُمّ يأمرُ هودٌ عليه السلام قومه على سبيلِ التّعجيزِ ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ فتعرّضُوا لي بأيّ شرٍّ أردتُم؛ أنتُم وآلهتُكم جميعًا ولا تُمهلُوني ساعة؛ واختارَ تكليمَ قومه لئلاَّ يكون خطابُه لمن لا يعقلُ، وفي الآيةِ أعظمُ دلائلِ صدقِهِ لمّا نفوا أنّه جاءهم ببيّنةٍ؛ فقد ردّ زعمهم بأنّ الآلهةَ أصابتهُ بأنّهُ لو اجتمعُوا كُلّهم أن يُصيبُوهُ بكيدٍ لم يَقوَوا عليهِ، واجتمعَ في تحدّيهِ لهم أربعة أمورٍ جسامٍ؛ طلبُ الكيدِ وهو الإضرارُ خفاءً؛ وبضمِّ كُلّ قِواهُم؛ وعدمِ إمهالِه لئلاَّ يتّخذ لنفسِه قوّةً أُخرى؛ ودعاهُم بذلكَ وهم يرونه فردًا واحدًا! وكأنَّ قومهُ استغربُوا من جرأتِه فبيّنَ لهم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ إنّي معتمدٌ على اللهِ في كُلّ أموري؛ فهو مالكي ومالككم أجمعينَ، واستعملَ الماضي لإفادةِ ما كان من توكّلِه وما سيكون مبالغةً في أنّهُ كائنٌ، وجاء بلفظِ الرُّبوبيّةِ بعد الألوهيّةِ (الله ربي) للاستدلالِ على صحّةِ توكُّلِه بأنّه على الذي ربّى وَمَلَكَ. ويذهبُ بهم هودٌ عليه السلام مذهبًا بعيدًا في تصويرِ قوّةِ الله وتحقيرِ قوّتِهم بقولِه: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ ليسَ ثمّةَ من مخلُوقٍ يدبُّ على وجهِ الأرض إلاَّ وهو في قبضةِ الله؛ و أنتُم منهم فاخشوهُ! والنّاصيةُ منبتُ الشّعرِ في مقدّمةِ الرّأسِ؛ والأخذُ بها صورةٌ تمثيليّةٌ لتمامِ السّلطةِ والقهر ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ استعارةٌ لحالِ الواقفِ على الطّريقِ المستقيمِ يُوجّهُ المارّينَ بهِ ويُنظّمهم بإحكامٍ؛ أرادَ بذلكَ إنّ ربّي الذي توكّلتُ عليه يُعاملُ خلقه وفقَ سننٍ بيّنةٍ عادلةٍ لا اعوجاجَ فيها؛ فلا يُهملُ الظّالم ولا يُعاقبُ البريء، ويُحتملُ أنّ الآية من "إنّي توكّلتُ" خطابٌ من مُحمّدٍ ﷺ لقريشٍ اعتبارًا بالقصّةِ. ثمّ يواصلُ هودٌ عليه السلام نُصحَ قومه قائلاً ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فإن تُعرضُوا عمّا أدعوكم إليهِ من الحقّ الواضح فلستُ مكلّفًا إلاَّ بتبليغِ ما أرسلني

بهِ الله إليكم وقد فعلتُ ولم أفرّط ولم يبقَ لكم من عُذرٍ وعلى الله حسابُكم، وفي "تولّوا" تاءٌ حُذفت جوازًا للتّخفيف وأصلُها "تتولّوا" ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ومن سُنّةِ الله أنّهُ يُهلكُ العصاةَ والمشركينَ ويُنشئُ من يخلُفهم من خلقِه في أموالِهم ومساكنِهم مؤمنينَ أو عُصاةً، وتضمّنَ هذا تهديدًا بليغًا لهم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ والله لن يضرّهُ شيءٌ بسببِ كُفركم؛ أو لن يضرّهُ شيء بِذهابكم؛ أو لا تقوونَ على ردِّ عذابِه إذا جاءَ ليأخُذكم، و"شيئًا" نُكّرَ لإفادةِ أقلّ الضّرّ منهم أنّه لا يملكونه؛ ويُقابله أنّ الله مالكٌ قادرٌ على استئصالِهم إن شاءَ واستخلافِ غيرِهم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ إنَّ ربّي الذي أعبُدهُ و أتوكّلُ عليهِ رقيبٌ عليَّ فسيحفظُني منكم؛ ورقيبٌ عليكم فسيمنعُكم منّي إن عزمتُم على ضُرّي؛ وهو الرّقيبُ على كُلّ شيءٍ بعلمِه وقُدرتِه، وحفيظٌ صيغةُ مبالغةٍ من حافظٍ وهو الذي لهُ القوّةُ على كُلّ شيءٍ.

١٢. نجاة هود والذين آمنوا معه، وإهلاك الظالمين

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَكُلِّ جَبَّارٍعَنِيدٍ (٥٩) وَ أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾

وبعدَ الوعيدِ الذي تضمّنهُ قولُ هودٍ عليه السلام لقومِه في: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ جاء ما توعّدهُم بهِ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وحينَ اقتربَ وقتُ هلاكِ قومِ هودٍ نجّى الله نبيّهُ ومن صدّقهُ فلم يمسسهُم ضرٌّبسببِ أنّ الله رحمهم؛ و"منّا" امتنانٌ أي لو لم يُنجِهم لماتوا معهم ابتلاءً، وكنّى عن عذابِه بالأمرِ تنويهًا بأنّهُ في قبضتِه وتحتَ تصرُّفِه؛ ومجيئُهُ مجازٌعن حلولِه ووقُوعِه؛ ونسبهُ إلى نفسِهِ (أمرنا) تهويلاً منه وليُعلّمنا نسبَ ذلك إليهِ دون الطّبيعةِ والأسبابِ؛ وأمرهُ فيهم كانَ بالرّيحِ الشّديدة كما في آياتٍ أُخرى[٦] ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وحفظنا هودًا والذينَ آمنوا معهُ من ذلك العذابِ الشّديدِ، وفي تجدّد لفظِ التّنجيةِ إطنابٌ لبيانِ هولِ هذا العذابِ وتّنويهٌ بقيمةِ الإنجاءِ منهُ، أو التّنجيةُ هنا أريدَ بها تنجيتُهم من العذابِ الأخرويّ؛ وردت صيغتُها بالماضي لإفادةِ التّحقُّق؛ وهذا حسنٌ لمقابلتِه قولهُ الآتي ﴿وَ أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والغليظُ استعارةٌ للشّديدِ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ وتلكُ عاقبةُ عادٍ المخزية؛ على تقديرِ مضافٍ، حينَ كذّبُوا ما جاءهم به هودٌ عليه السلام وعصوهُ، والرّسُول واحدٌ و إنّما عبّربالجمعِ تعظيمًا لهُ وتصويرًا لفظاعةِ تكذيبِهم بأنّهُ لو جاءهم أيّ رسُولٍ من اللهِ لكذّبُوهُ أو بمعنى تكذيبُهم لهود تكذيبٌ لمن سبقَ ومن سيأتي من الرُّسلِ

[٦] ومن ذلك قولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ الآية [الحاقة ٦].

لأنّ أصول دعوتِهم واحدةٌ؛ والآيةُ كقولِه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء ١٢٣] ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقد أطاعُوا الأسياد والكُبراء المتسلّطينَ حينَ كذّبُوا الآيات والرّسُل؛ أي خافُوهم و اتّبعوهم فلم يعبُدوا الله فالآية تعليلٌ عن سببِ عصيانِهم الله والرّسُول، والعنيدُ صفةُ مبالغةٍ للمعانِد وهو الذي يُواجهُ الحقَّ ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وكانَ جزاءُ الأتباع والمتبوعين من أهل الباطل أن ألحقَ الله بهم سُخطهُ وغضبهُ في الدُّنيا بعذابِ الرّيحِ وفي يومِ الحسابِ بعذابِ النّارِ الأبديّ، واللّعنةُ طردٌ على وجهِ التّحقيرِ، والآية سيقت تمثيلاً لحالِهم مع اللّعنةِ وكأنّها متسلّطٌ يُريدُ بهم سوءًا يتبعُهم أينما سارُوا ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ تشنيعٌ افتتحهُ بحرفِ التّنبيهِ "ألاَ" مع استعمالِ التّوكيدِ وإظهارِ اسمِ "عاد" كأنّهُ قال: ألا فلتعلموا أنّ عادًا قد جحدُوا قدرَربّهم فكفرُوا بهِ وعصوا رسُولهُ؛ ومن أجلِ ذلك حقّتِ اللّعنةُ عليهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ألاَ قد استحقَّ عادٌ كُلَّ البعدِ من رحمةِ اللهِ، وأعادَ حرفَ التّنبيهِ مبالغةً في تفظيعِ حالِهم، و"بُعدًا" لفظٌ ظاهره الدُّعاءِ بالبعدِ للقومِ؛ إلا أنّه من الله إخبارٌ؛ لأن الله المالك الذي يتوجه إليه الدعاء، وليس الله بحاجة إلى الدعاء، و"قوم هودٌ" صفةٌ لعادٍ حسّنَ بها نهايَة القصّة ليبدأ قصّةَ ثمودٍ[٧].

١٣. إرسال صالح إلى ثمود وجدالهم له

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَ إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَتَخْسِيرٍ(٦٣)﴾

وبعد قِصّتي نوحٍ وهودٍ عليهما السّلام يأتي إلى قصّةِ صالحٍ مع قومه ثمود ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ عطفٌ على قصّةِ هودٍ السّابقةِ؛ بتقديرِولقد أرسلنا إلى القومِ الغابرينَ المعرُوفين باسمِ "ثمودَ" رسُولا منهم اسمُه "صالحٌ"، ومساكن ثمود الحجر(مدائن صالح) بين الحجازوالشام شرق خليج العقبة، وأخو القوم الواحدُ منهم؛ والأخوّةُ في الآية نسبيّة لا دينيّة. فدعا صالحٌ عليه السلام قومه ثمود بنحوِ ما دعا هودٌ عليه السلام قومه عادًا قائلاً لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أذعنوا لله الواحدِ العظيمِ وحدهُ؛ ليس لكم أيّ إلهٍ غيرهُ يستحقُّ العبادةَ، والنّداءُ باسمِ القومِ استلطافٌ لهم، ودعوتُه هذهِ أوّلُها حثٌّ وترغيبٌ لتأسيسِ إيمانٍ جديدٍ بالله؛ وآخرُها لومٌ وتوبيخٌ لإحباطِ معتقداتِهم

[٧] وقد احتملَ القُطب أطفيّش وغيرُه أنّه احترازٌ من عادِ الثّانية وهي عادُ إرم؛ أي فالقصة في سورة هود عن عادٍ الأولى؛ وردّ ذلك الطّاهر بن عاشُور في تفسيرِه للآيةِ واستبعدهُ فليس ثَمّةَ إلاّ عادٌ واحدةٌ.

الباطلة ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ اعبُدوا الذي بدأَ خلقكم الأوّل من تُرابٍ؛ إشارة إلى خلق آدم، ويُحتملُ أنّه إيماءٌ إلى سببيّةِ الأرضِ في نشأتِهم وقوّتِهم حيثُ تُمدُّهم بالخيراتِ، ولعلّهُ بدأَ توجيهِهم بهذا نظرًا لما تميّزوا به من النّشاطِ الفلاحيّ كما جاءَ في قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشّعراء ١٤٦-١٤٨]، وصدارةُ الضّميرِ(هو) الذي هو فاعلٌ في المعنى والإخبارُ عنهُ بفِعلَيْ "أنشأَكم واستعمركم" دون مُنشئكم ومُستعمركم أفادَ قصرًا وتخصيصًا بمعنى هو لا غيرُهُ ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وأسكنكم فيها أطوارًا يخلُفُ بعضُكم بعضًا، واصطلاحُ الاستعمارِفي القرآنِ دلالتُه تنصرفُ إلى أمرٍ محمودٍ وهو الإحياءُ والاستخلافُ بالزّرعِ والبناءِ ونحوِ ذلك؛ يُقال: استعمرهُ الله إذا أبقاهُ حيًّا، والمرادُ مَن شأنه أنّه يَخلُق ويُحيي هو المعبُود الحقّ لا آلهتُكم ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ واطلبُوا من الله المغفرةَ على ما سلف من شرككم ومعاصيكم ثمَّ ارجعُوا إليهِ بالإيمان والطّاعةِ وصالِح الأعمالِ؛ ولقد سبقَ قريبٌ من هذا في قصّةِ هودٍ عليه السلام. ولَمّا كان المتوقّعُ من ثمودَ استبعادهم لغُفرانِ الله وتوبته عليهم قالَ لهم صالحٌ عليه السلام مؤكّدًا ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ إنّ ربّي الذي أدعوكم إليه قريبٌ يسمعُ الدّعاء ويُجيبُ الدّاعي، وقُرب الله كنايةٌ عن سماعه الذي سينفعُهم فيُجيبُهم؛ كما يُستعارُللرّأفةِ بهم والإحسانِ إليهم.

أجاب ثمودٌ دعوةَ نبيّهم اللّيّنة الهادفة بما يصوّرُنفورَهم عن ملامسةِ الحقّ واكتشافِه ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ لقد كُنّا يا صالحُ نرى فيكَ الشّخص المثاليّ النّافع بحلمكَ وأخلاقِك وعلوّتفكيرك قبل أن تدعونا بتلك الدّعوةِ؛ أَمَا وقد جئتَ بها فقد سقطت من أعيُننا، وحُذفَ ما يتعلّقُ بـ"مرجوًّا" للعلم به أي مرجوًّا للخيرِوالنّفع، وخاطبُوهُ بأداةِ النّداءِ وبصريحِ اسمه لشدِّ انتباهه وتصويبِ سهمِ التّوبيخِ إليهِ ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أتُنكرُعلينا عبادةً كان يقُوم بها آباؤُنا؛ وهم أقدمُ زمنًا وأجودُ رأيًا وأكثرعددًا منك؟ والمضارع في "يعبدُ" حكايةٌ لما مضى وكأنّه حاضرٌ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ إنّنا في شكٍّ يبعثُ على شكٍّ آخرفي شأنِ دعوتِكَ ما يجعلُنا نتّهمك، و"مريبٌ" اسمُ فاعلٍ من فعلِ "أَرابَ" أي أوقع في الرّيبِ وهو الشّكّ؛ وصيغةُ تعبيرِالآية كقولِنا: جدَّ جدُّه وظلٌّ ظليلٌ.

أجاب صالحٌ عليه السلام استنكارَقومه بقولِه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ يا قومِي: أنظرتُم إلى شأني بتبصّرٍحينَ أكون صاحب برهانٍ صادقٍ من اللهِ على ما أنا أدعو إليهِ؛ والله قد منَّ عليّ بالوحيِ والرّسالةِ؛ أفأتركُ ذلك من أجلِ اتّباعكم؟ وكيفَ يتأتّى لي ذلك و أنا لا أجدُ عاصمًا يعصمني من عذابِ الله؟ فالمحاورةُ جدلٌ واعتذارٌ، واستعملَ "إن" المفيدة للشّكّ مراعاةً لمن يُخاطبُهم ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ فمن من الخلقِ يردُّ عنّي سُخط الله وعذابه إن أنا التبستُ

بمعصيته؟ والاستفهامُ للنّفي أي لا أحدَ، والآيةُ شاهدٌ صريحٌ واضحٌ لخطورةِ المعصيةِ على مصيرِ الموحّدِ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ ولا أربحُ شيئًا معكم إن تخلّيتُ عن دعوتكم وقلّدتُ ما ترك آباؤُكم؛ بل سأرجعُ خاسرًا بتضييعِ سعادةِ الدّنيا وثواب الآخرةِ، أو فما تزيدونني غير تخسيرٍ لكم؛ كما يُقال للمعاند لا تزيدني بعنادكَ إلاّ غضبًا أي عليكَ.

١٤. إهلاك ثمود لعقرهم الناقة، ولتكذيبهم نبيهم

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨)﴾

ولمّا سبقَ بيانُ شكِّ ثمود في دعوةِ صالحٍ عليه السلام أجابهم هنا بتقديمِ آيةٍ عجيبةٍ دلّت على صدقه ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ ويا قومِي بينَ أيديكم آيةٌ من آياتِ الله العظيمة؛ هذه النّاقة التي لم تنشأ كعادةِ سائرِ النُّوقِ؛ والله أعلمُ كيفَ أُخرجت لهم فرأوها ماثلةً بينَ أعيُنهم، وكُلّ النّوق لله وإنّما جاءت الإضافةُ في "ناقةُ الله" لمزيدِ تشريف؛ كما أنّ قوله: "لكم" دلّ على تخصيصٍ بهم فهي سببٌ لاختبار إيمانِهم ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ وأنا آمرُكم أن تترُكوا النّاقةَ وشأنها؛ تأكل من أرضِ الله كيفَ شاءت وتشرب[٨]، وتضمّن قوله: "في أرضِ الله" تعليلاً لأمرِهم فإنّ صاحب الأرضِ يأذنُ لمن يشاءُ في الانتفاعِ بأرضِه؛ كما أنّه تخفيفٌ عليهم حيثُ لم يُكلّفهم طعامها وشرابها، ولعلّ في هذا التّركِ حكمة بقائها آيةً منظورةً بخلافِ ما لو حُبست أو منعت، وأكّد أمر تركها بقولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ ولا تتعرّضُوا لها بأيّ نوعٍ من أنواعِ الإساءةِ كضربٍ أو جرحٍ أو قتلٍ أو منعٍ من مرعى؛ والآيةُ تحتملُ أدنى من ذلكَ في وصفِ السّوءِ. وإن فعلتُم ما نهيتُكم عنهُ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ سيُسلّطُ الله عليكم عذابًا عاجلاً جزاء مخالفتِكم.

ثمّ يأتي إلى حكايةِ تعاملهم مع آيةِ النّاقةِ وكيفَ كان أخذُهم بالعذابِ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فتعرّضوا للنّاقةِ بالعقرِ؛ وهو ضربُ الأرجل لتموتَ بعد النّحرِ أو الإصابةِ في مكانها حيث لا تتحرّك، وعبّر بالفاءِ تنبيهًا إلى أنّهم سارعوا إلى إنكارِ الآيةِ التي جعلها الله فيهم علامةً على صدقِ نبيّهم؛ وأنّ مخالفتهم لأمرِ الله كانت

[٨] خصّ هنا ذكرَ الأكلِ لمعلوميّةِ اجتماعه مع الشّربِ كما خصّ الشّرب في قوله: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشّعراء ١٥٥].

اقتر افًا للعَقرِ مباشرةً دون ما هو أخفّ منهُ، ولا شكَّ أنّ العقر صدر من بعضٍ ونسبهُ إلى الكلِّ لرضاهم بما نهى الله عنه ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ و أنبأهم صالحٌ بأن يتربّصُوا في مدينتِهم ثلاثةَ أيامٍ متتابعاتٍ وسيأخذهم بعدها عذابُ الله الذي توعّدَهم بهِ، أو الأمرُ "تمتّعوا" على سبيلِ التّهكّم، ودارُهم بلدُهم أو المرادُ كُلٌّ ودارُه التي يسكُن فيها ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ وذلك الزّمان المحدّدُ لكم وعدٌ محقّقٌ ليسَ كذبًا ولا باطلاً، والوعدُ في الآيةِ بمعنى الموعودِ، ولَمّا كان ديدنُ قومه التّكذيب لم يُبالُوا بوقتِ العذابِ ولا بمكانِه فكان إخبارُه شاهدًا على صدقِه أيضًا ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ ولَمّا اقتربَ موعدُ إهلاكِ ثمود نجّى الله نبيّه صالحًا عليه السلام ومن آمن معه بفضلٍ منه ورحمةٍ؛ وهذا الموقفُ عينُ ما حكى الله سالفًا في السّورةِ عن تنجيةِ هودٍ عليه السلام ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ ولقد نجّينا صالحًا ومن آمن معهُ من الهوانِ العظيمِ الذي لحقَ بعامّةِ ثمود، والعطفُ هنا من بابِ تنويعِ صورِ المنّةِ فجعل التّنجيةَ تنجيتينِ؛ من العذابِ ومن الهوانِ الذي لبِسَهُ، وتنوينُ "يومئذٍ" عوَّض المضاف إليهِ المحذوف والتّقديرُ ومن خزيِ يوم إذ جاءَ أمرُنا ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ إنّ ربّكَ هو صاحبُ القوّةِ المطلقةِ فهو القادرُ على إهلاكِهم؛ وهو العزيزُ في ملكه لا يغلبُه أحدٌ، والخطابُ للرّسُول مُحمّدٍ ﷺ ويلحقُ غيرهُ، وجاءَ بهذه الجملةِ الاعتراضيّةِ وعدّدَ من تأكيداتها لغرضِ تعظيمِ مقامِ الله والاعتبارِ بما ألحقَ بثمودَ ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وتحقّقَ أمرُ الله على ثمودَ فأخذهم بعذابِ الصّيحةِ؛ وهو الصّوتُ الشّديدُ والله أعلمُ بمنشئهِ وقوّته، واختارَ تسميتهم بعنوانِ الظّلم ليبيّن لنا سبب نزولِ العذابِ عليهم، وعبّر عن هذا الموقفِ أيضًا بقولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعرافُ ٧٨] ولعلَّ شدّةَ الصّيحةِ سبّبت حالاً من الارتجافِ فعبّر هنا ببادئ العذابِ وفي الأعراف بما نتجَ عنهُ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فصارُوا بعدَ حينٍ صرعى على الأرضِ لا حراكَ لهم، والجاثمُ السّاقطُ على رُكبتيه أو على وجهه كما يُطلقُ الجثُوم مجازًا على السّكونِ، وديارُهم عموم بلدِهم؛ أو ذكرَها تنبيهًا بأنّهم أخذوا ببغتةٍ وسرعةٍ فلم يتمكّنوا من الفرارِ، ويُؤيّدُهُ أنّه صوّر سُرعةَ هلاكهم بقوله: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ ذهبُوا بالهلاكِ العظيمِ وكأنّهم لم يعمروا أرضهم ساعةً، يُقالُ غنيَ بالمكانِ إذا أقامَ فيهِ ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ألاَ فاعلموا أيّها النّاس أنّا أخذنا ثمودًا حينَ جحدُوا آياتِ ربّهم وعصوا رسوله؛ ومثلُ هذا التّنبيهِ سلف في شأنِ عادٍ ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ ألاَ قد استحقّت ثمودُ بعصيانها وكُفرها إبعادًا عظيمًا من رحمةِ الله.

١٥. بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام بإسحاق

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)﴾

وبعدَ قصّةِ نوحٍ فهودٍ فصالحٍ يأتي إلى الحديثِ عن إبراهيم ولوطٍ عليهم السّلام أجمعين، وسيدنا إبراهيم عليه السلام ولد في مدينة أور الكلدانية جنوب العراق ثمّ سار إلى حرّان بتركيا، و انتقل إلى فلسطين ثمّ مصر ثمّ مكة، وأخيرا توفي ودفن في مدينة الخليل بفلسطين ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ ولقد حملت الملائكةُ -وكانوا على هيئةِ رجالٍ- بشارةً من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بأنّه سيُوهبُ ولدًا اسمُه "إسحاق" كما سيأتي؛ وهي بشارةٌ خاصّةٌ بإبراهيم لأنّه سيجعلُ أخرى لامرأتِه، وقيل: البشارةُ هنا بعذابِ قومِ لوطٍ، وقد اختلفَ مطلعُ القصّةِ هذا عن سابقيهِ فلم يقل: وإلى إبراهيم... لأنّ الملائكةَ هنا جاءت للبشرى لا للرّسالةِ ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ ولمّا دخلُوا عليهِ ألقوا السّلام عليهِ فردَّ عليهم السّلام، وفي الآيةِ إطنابٌ تضمّنَ أدبًا لطيفًا في ردِّ السّلامِ بمثلِه على الأقلِّ؛ وأن يبدأَ به الضّيفُ للمُضَيِّفِ، كما تضمّن أدبًا آخر في الضّيافةِ من حيثُ تقديمُها لكُلِّ إنسانٍ ولو جُهلَ ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ﴾ وما إن رأى إبراهيمُ عليه السلام الملائكةَ ظنّهم كسائرِ النّزلاءِ والأضيافِ من النّاسِ؛ فبادرَ من غيرِ إبطاءٍ إلى إكرامهم، وفي هذا التّعبيرِ ما أفادَ مبالغةً في الإسراعِ تعليمًا لأدبٍ في الضّيافةِ؛ وإلاّ فإنّ في ذبحِ العجلِ -الذي سيذكُرُه- ثمّ شوائِه وقتا معتبرا، ويُحتملُ أنّ من شأنِ إبراهيم ترتيب طعامٍ ساخنٍ للأضيافِ إذا ما وفدوا عليه وجدُوهُ ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ بعجلٍ مشويٍّ؛ وناسبَ الإسراعَ لأنّ الشّيّ أسرعُ من الطّبخِ، والعجلُ ولد البقرِ، والحنيذ المشويُّ على الحجارةِ؛ أو هو الذي يتقاطرُ دسمًا ويُؤيّدُ الثّاني قوله: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذّاريات ٢٦] والجمعُ بين الدّليلينِ يقطعُ بأنّه عليه السلام قدّم عجلاً كاملاً؛ فيكون دليلاً على أدبِ الإكرام بالأجودِ وبالسّخاءِ؛ فإنّ كثرةَ الطّعامِ مع جودتِه تجعلُ الضّيف ينبسطُ له ولا يستحي ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ وحينَ وجدَ إبراهيمُ عليه السلام من ضيُوفه نفورًا عن طعامه مع أنّه قرّبه إليهم استغربَ من حالِهم، وعدمُ وصولِ أيديهم إلى العجلِ مجازٌ عن عدمِ رغبتِهم في الأكلِ منه؛ فلم يكن العجلُ بعيدًا ولا كانت أيديهم قصيرةً ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وأحسَّ إبراهيمُ عليه السلام بخوفٍ ينتابُه بسببِ امتناعِهم عن الأكلِ؛ قيل: كان هكذا شأنُ العربِ إذا امتنع الضّيفُ عن طعامِهم إذ لعلّه جاء لسوء، والخوفُ من أحدٍ لا يعني أنّه على صورةٍ قبيحةٍ وأصل الملائكة وصفُهم بالمكارم، ولا شكَّ أنّ

خوفَ إبراهيم المتعلّق بعدمِ أكلِهم ثبت بعد تقديمِه ضيافةً من عموم الطعامِ لا من خصوصه؛ فيكونُ في هذا أدبٌ أيضًا فهو أريحُ لنفسِ الضّيفِ وأطيبُ. ويُطمئنُ وفدُ الملائكةِ خليلَ الله بألاَّ يخافَ بسببِهم: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ لا تتخوّف منّا شيئًا؛ فنحنُ خلقٌ لا نأكُل ولا نشرب، وغايةُ ما جئنا من أجله أن نتولّى إهلاك قومِ لوطٍ، ومن بديعِ التّقديرِ الإلهيّ لُطفه بإبراهيم عليه السلام فأرسل إليهِ الملائكةَ تبشّرُه بأمرٍ تخفيفًا من وطأةِ خبرِ الإهلاكِ الذي سمعهُ ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ وفي موقِف الضّيافة الذي كانت امرأةُ إبراهيم عليه السلام قائمةً عليهِ؛ تبسّمت ضاحكةً لبشارتِها بالولدِ[٩]، أو بسماعِ خبرِ إهلاكِ القومِ المجاوزينَ حدود الله في الفسقِ والجريمةِ المنظّمة، أو الضّحكُ هنا حكايةٌ لحالِ زوالِ الخوفِ منها ومن زوجها لَمّا تبيّنت لهما حقيقةُ الأضيافِ، وقد ثبتَ لُغةً "ضحكت" بمعنى حاضت؛ وهو تفسيرٌ مقبُولٌ هنا ويُؤيّدُه أن جاءَ بعدهُ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فأبلغها الملائكةُ بشارةً من اللهِ بولدٍ اسمه إسحاق؛ ومن ولدِها هذا تُوهبُ يعقوب -على الكُلِّ السّلام- وهذا الظّاهرُ؛ ويجوزُ أن يكون ميلادُ يعقوب ذكرهُ إخبارًا فحسبُ أي فيُستحسنُ الوقفُ على "إسحاقَ" الأولى. فاستقبلت المرأةُ البشارةَ ببالغِ التّعجبِ قائلةً: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى﴾ يا وَيْلَتِي احضري هذا أو انُك، نداءٌ وردَ استعمالُه عند استقبالِ الأمرِ العجبِ خيرًا أو شرًّا، مركّبٌ من الويلةِ وهي مرّةٌ من الويلِ؛ وألفٍ للاستغاثةِ عوّضت ياء المتكلّمِ، والنّداءُ استعارةٌ فقد أُنزلت الويلةُ منزلة العاقلِ الواعي فنادتها ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ كيفَ يكونُ لي ولدٌ و أنا طاعنةٌ في السّنِّ؛ وهذا إبراهيمُ زوجي شيخٌ كبيرٌ في السّنِّ مثلي؟ والاستفهام تعجّبيٌّ، والإشارةُ إلى حالِ الهرمِ والشّيخوخةِ لا إلى شخصِ إبراهيم عليه السلام، والبعلُ الزّوجُ، وظاهرُ الآياتِ منبئٌ أنّ المحاورةَ تمّت في مجلسٍ واحدٍ ضمَّ الزّوجينِ مع الملائكة على أن ننزّه مقام النّبي وامرأته من كُلِّ ما يُخلّ بأدبٍ أو حياءٍ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ إنّ الإنجاب من مثلنا سنًّا لأمرٌ جللٌ يبعثُ على العجبِ؛ وليس في تعجُّبها ما دلَّ على تضجُّرٍ أو استبعادِ الأمرِ فهو انعكاسٌ طبيعيٌّ حينَ يُخبرُ الإنسانُ بما يُخالفُ العادة، لأنّهما يُوقنانِ بأنّه لا مستحيلَ مع الله. ردَّ عليها وفدُ الملائكةِ ويُحتملُ أنّ إبراهيم ردَّ معهم: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أيكونُ منكِ تعجّبٌ من شيءٍ أرادَه الله؛ وهو الذي لا يُعجزهُ أمرٌ؟ ويستطيعُ أن يُخرجَ من عجوزٍ وشيخٍ ولدًا. وينتهي موقفُ الوفدِ الملائكيّ بدعاءٍ تعليلاً لاستحقاقهما للكرامةِ: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ حلّت عليكم رحمةُ اللهِ وتنزّلت عليكم بركاتُه العظيمة يا أصحاب بيتِ النّبوةِ والكراماتِ الإلهيّةِ، والبيتُ هنا للنّسبِ والأشخاصِ لا لبيتِ الطّينِ والحجرِ، وفي الآية دليل على أن زوجة النبي من آل بيته ما كانت صالحة ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ

---

[٩] وهو الظّاهرُ والمتبادرُ ولقد سبقَ ذكرُ البشارةِ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۞ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ ..﴾ [الذّاريات ٢٨ – ٢٩] غير أنّ سياقَ الآياتِ في سورةِ هودٍ يأباهُ.

مَجِيدٌ﴾ إنّ ربّنا جليلٌ يستحقُّ الحمدَ كُلّهُ وحدهُ على أيّةِ حالٍ؛ وليسَ في أفعالِه أو صفاتِه ما يذمّ وهو الحامدُ المجازي بالخيرِ؛ مجيدٌ لهُ كُلّ الرّفعة والشّأنِ ليسَ له ندٌّ ولا مُساوٍ.

١٦. مجادلة إبراهيم عليه السلام في قوم لوط الذين انحرفوا عن الفطرة

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾

ويتتابعُ الحديثُ في قصّةِ إبراهيم عليه السلام مع الملائكة ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ وحينَ اطمأنّ إبراهيمُ عليه السلام لضيُوفه من أنّهم لا يريدونه بسوءٍ؛ وتلقّى منهم بشارةً بالولدِ، والرّوعُ الفزعُ والهلعُ، وبينَ "ذهبَ وجاءتهُ" طباقٌ حسنٌ ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أخذ يُحدّثُ وفد الملائكة في شأنِ قومِ لوطٍ لَمّا قضى الله إهلاكهم؛ وقد أخبرُوهُ: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت ٣١]؛ والجدالُ هنا مفسّرٌ بالمحاورةِ؛ والظّاهرُ أنّه كان في تنجية من آمن وطلبِ تأخيرِ العذابِ قليلا عمّن كفروا لعلّهم يرجعون؛ وليسَ اعتراضًا وإلاّ عوتبَ كما عوتبَ نوحٌ عليه السلام في ابنِه؛ وعبّر بالمضارع إعلامًا بإلحاحِهِ واستمرارِه في الجدالِ أو لاستحضارِ حالِه العجيبةِ وكأنّها تجري الآن، وجدالُه كان للملائكةِ و إنّما نُسب لله لأنّه مرسلُهم؛ وجازَ تفسيرُه بأنّه مناجاةٌ لله. وليُدفع توهّم أنّ الآية وردت لذمّه قال مادحًا إيّاهُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ إنّ إبراهيم ذو حلمٍ واسعٍ على الخلقِ لا يتمنّى هلاكهم، أوّاهٌ كثيرُ التّأسّف على حالِهم إذا كان سيّئًا لا يُحمدُ؛ يُحبُّ الرّجوع إلى الله بالتّوبة والطّاعات ومجانبة الموبقاتِ، ولعلّ اعتراضَ قصّةِ إبراهيم بينَ قصّةِ هودٍ ولوطٍ -مع أنّه لم يُذكر مع قومِه مثلَهم- كان تنويهًا بمقامِه بينهم. وألحَّ إبراهيمُ في المجادلةِ حتّى قالت الملائكةُ لهُ بأمرِ الله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يا نبيَّ الله إبراهيم تخلَّ عن المجادلةِ في إهلاكِ قومِ لوطٍ، أو هذا الكلام وما يأتي وحيٌ من اللهِ؛ ولا ضيرَ إذ الملائكةُ أيضًا مخبِرةٌ عن الله ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فإنّ وعدَ الله فيهم قريبٌ ثابتٌ، ومجيءُ أمرِ الله هنا كنايةٌ عن اقترابه ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وإنّ قوم لوطٍ عليه السلام سيُفاجئهم عذابٌ عظيمٌ لا يستطيعون ردّه؛ ولا يستطيعُ نبيٌّ ولا ملكٌ ولا غيرُهم رفعَه عنهم بجدالٍ أو دُعاءٍ أو شفاعةٍ ونحوِ ذلكَ، وهذا المقطعُ من الآيةِ تأكيدٌ لسابقِه؛ مع أنّ كُلًّا منهما تضمّن أكثر من مؤكّدٍ إثباتًا للعذابِ.

ثمّ يأتي إلى إيرادِ ما جرى بينَ الملائكةِ وقومِ لوطٍ بعد مفارقتِهم لإبراهيم عليه السلام ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ ولمّا قدم وفدُ الملائكةِ إلى لوطٍ تملّكه استياءٌ وضيقٌ بقُدومهم ظنّا من أنّهم بشرٌ وأنّ قومه سيتعرّضُون لهم بسوءِ فاحشتِهم، و"سيء" فعلٌ مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعلُه؛ وأصلُه ساءَهُ مجيئُهم، و"ذرعًا" تمييزٌ محوّلٌ عن فاعلٍ أي ضاقَ ذرعُه بهم؛ والذّرعُ مدُّ الذّراعِ وهو ما بينَ الأناملِ والمرفقِ؛ وتعبيرُ الآيةِ استُعملَ مثلاً في القدرةِ والعجزِ؛ وقد استعيرت صورتُه من الذي مدّ يدهُ إلى الشّيءِ فضاقت مسافةُ مدِّهِ عن تحصيلِه. وعبّر لوطٌ عن استيائه وضيقه ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ هذا يومٌ شديدٌ عليّ بسببِهم، والعصيبُ الشّديدُ في الشّرّ؛ من العصبِ وهو الشّدُّ على الشّيءِ ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وما إن سمع قومه بخبرِ حلولِ الأضيافِ في قريتِهم جاءوا مسرعينَ إليهم ابتغاءَ الفاحشةِ معهم، والذينَ جاءوا بعضُ القومِ ونسبَ ذلكَ إلى الكلِّ مجازًا لمّا كان طبعًا سائدا فيهم، و"يُهرعُون" من الهرع وهو حالٌ من الإسراع؛ وصيغتُهُ تصويرٌ لقاهرٍ يدفعُهم على السّرعةِ وهو الشّهوةُ والسّوءُ ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ومن قبلِ ساعةِ حلولِ الأضيافِ كانوا غارقينَ في الفاحشةِ يأتي الرّجال بعضُهم بعضًا؛ كما في قولِ لوطٍ لهم في: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف ٨١] وفي كلا الآيتينِ عبّر بالمضارعِ المنبئ عن الاستمرارِ، أو القَبْلِيَّةُ هنا منصرفةٌ إلى بيانِ عادتِهم وكأنّه قال: وكان من عادتِهم إتيانُ الرّجالِ؛ أوردَه تعليلاً لعدمِ استحيائهم وقدومهم بدافعٍ وشهوةٍ. وأشارَ لوطٌ عليه السلام لقومه بكُلِّ تأوّهٍ وتأسّفٍ يناديهم بنداءِ استلطافٍ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ بينَ أيديكم نساءٌ أطيبُ لكم لقضاءِ شهوتكم، ويقصد نساء قومه، ونسبهن إلى نفسه فقال: "بناتي" مجازًا في كونه أبًا مربيًا للجميع ومشفقا عليهم، وقيل: قصد بناته حقيقة، والخطابُ في الآيةِ متّجهٌ إلى فطرتِهم التي فيها الميلُ إلى النّساءِ من طريقِ الحلال؛ ولوطٌ عليه السلام منزّهٌ عن دعوتِهم إلى النّساءِ من غيرِ ضابطٍ لأنّ كلا الأمرينِ شنيعٌ، ويُحتملُ أنّ صيغةَ "أطهر" مسلوبة المفاضلة أرادَ بها أنّهنّ طاهراتٌ وسواهنَّ رجسٌ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ فخافُوا عقابَ الله و انبذُوا الفاحشةَ؛ ولا تهينوا عليَّ ضيوفي ولا تُخجلوني فيهم، قال ذلك لأنّ إخزاء الضّيف في بيتِ المُضيّفِ إخزاءٌ للمُضيّفِ قبل الضّيفِ؛ ولمثلِ هذه اللّفتةِ سيقول له الملائكة: ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ ألا يوجدُ ضمن جمعكم الكثيررجلٌ واحدٌ يردُّ برشدِهِ هذه الإساءةَ الشّنعاء، والاستفهامُ غايةٌ في التّعجّب والتّوبيخِ والملامة، ولم يرَ نبيّ الله وجودَ راشدٍ فيهم لأنّهم أجمعوا على إهانةِ الضّيفِ وهي مسبّةٌ لا يأتيها إلاّ سفيهٌ.

أجابهُ قومه بكلِّ جرأةٍ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لقد سبقَ لكَ علمٌ بنا أنّنا لا نرغبُ في النّساءِ وليس لنا أيُّ مطمعٍ فيهنّ، وفي هذا كشفٌ منهم غيرُ مباشرٍ لعلّةِ تحريمِ هذه الفاحشةِ فهي التي تُفسد طبائع الرّجال وتُفسد فيهم غريزةَ حُبّ الإنجاب والتّوالد ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ و إنّك يا لُوط تعلمُ أنّنا نرغبُ في الرّجالِ فحسبُ؛ أكّدُوا له عدم رغبتِهم في النّساءِ ثمّ أكّدُوا رغبتهم في الرّجالِ

إمعانًا منهم في المجاهرةِ والمكابرةِ؛ وفي هذا دليلٌ على دأبِ لوطٍ عليه السلام في نهيهم عن الفاحشةِ حتّى حسبُوه عالمًا بما يُريدون وما يذرُون. ولمّا يئس لوطٌ من استجابتِهم انثنى قائلاً: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لو كانت لي أيُّ قوّةٍ لدفعِكم وردّكم؛ وتقديرُجوابِ "لو" الشّرطية لدفعتُكم؛ وحذفُه حسنٌ هنا من حيثُ إنّه يبعثُ على تخيّل وعيدٍ وتهديدٍ، وباءُ "بكم" بمعنى "على" كقولِه: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ﴾ [البقرة ٢٤٩] ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أو لو أنّ لي عشيرةً و أنصارًا لأطلب منهم حمايةً لَما امتنعتُ؛ وليسَ في هذا نسيانٌ من لوطٍ عليه السلام للدّعاءِ لأنّه طلبَ مباحًا؛ وما ورد في الحديث ليس صريحا في عتاب لوط، إذ يمكن تأويلِ الرُّكنِ الشّديد بأنّه الله[١٠] وعليه تكون "أو" بمعنى "بل"، وهو على كُلّ حالٍ استعارةٌ لحالِ الذي تزلزلت الأرض تحته واضطرب فؤادُه من الفزعِ فتطلّع إلى ناحيةٍ متينةٍ يحتمي بها، والرّكن لغةً الشّقُّ من الجبل القريبُ من الأرضِ.

١٧. نجاة لوط عليه السلام والمؤمنين، وإمطار الظالمين بعذاب أليم

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾

وحينَ علمَ وفدُ الملائكة تحسّرَ لوطٍ عليه السلام على حال قومِه طمأنوهُ بقولِهم: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ يا نبيَّ الله لوطًا إنّنا رُسلٌ من اللهِ جئنا لهلاكِ القومِ الظّالمينَ فلا يُصبْك منهم حزنٌ وغمٌّ بسببنا، وهم بهذا كاشفُوه بأنّهم ليسُوا بشرًا؛ وهو عالمٌ بأنّ الملائكةَ لا تتنزّلُ إلاّ بالحقّ ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ لن يتمكّنُوا أبدًا من إلحاقِ ضررٍبكَ؛ ومثلُ هذا الكلامِ في موقفِ الخوفِ لا يقُوله إلاّ الطّرفُ القويّ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ و إنّا نأمرُك بأن تخرُج بمن معك من أهلِ الإيمانِ ليلاً، وتعبيرُالآيةِ إيجازٌأفادَ التّرفّق بأهلِه أيضًا فلم يقل: أَسرِ أَهلكَ ونفسَك، والسُّرى السّيرُليلاً إلى الصّبحِ، والقِطْعُ الجُزءُ أو البقيّةُ من اللّيلِ؛ وفي القرآنِ: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر٣٤]، والظّاهر أنّ لوطًا سارَبأهلِه ليلاً ولم يأتِ عليهم السّحرُإلاّ وهم في حيّزِالنّجاةِ؛ وقومه أُخذوا ما بينَ السّحَرِوالإشراقِ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر٧٣] ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ونوصيكم بألاّ يصدَّ أحدكم وجهه إلى الخلفِ حالَ المسيرِ؛ والمخاطبُون أهل لوطٍ، لعلَّ ذلك من أجلِ ألاّ يصدمهم مشهد عذابِهم الفظيع أو إيماءٌ لهم بأن

---

[١٠] الحديثُ طويلٌ ورد من طريقِ أبي هريرةَ وفيه:﴿..وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ..﴾ رواهُ البخاري، ك: أحاديث الأنبياء، ب: قوله تعالى: "ونبئهم عن ضيف إبراهيم"، ر:٣٣٧٢(١٤٧/٤).

يُســرِعُوا أو ليُخلصــوا في تحقيقِ الهجرةِ ولا يتعلّقُوا بوطنِهم ولو بنظرةٍ؛ والأحســن منه الجمعُ بين نكتةِ النّهي عن الالتفاتِ هنا وقولِه: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَـيْفِهِ فَطَمَسْـنَا أَعْيُنَهُمْ[11]﴾ [القمر٣٧] وأنّ هذا الطّمس هو الإصابةُ المقصودة في: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ وباستثناءِ امر أتكَ يا لُوط فإنّه سـيلحقُها ما لحق القوم، أي هو عذابُ الطّمس يلحقُ كلّ ظالمٍ منهم قبل أن يحلَّ الاسـتئصـال بجعلِ القريةِ عاليها سـافلها؛ هذا لَمّا علمنا أنّه وعيدٌ هدّد الله بهِ غيرَهم كما قال للذين أوتوا الكتاب: ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَـدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النّسـاء ٤٧] وفي العذابِ سـنَنٌ، واسـتعمل "أصـابهم" بالمضـيّ لإفادةِ التّحقّقِ، ولَمّا كان وقعُ تعدّي القوم شـديدًا على قلبِ لوطٍ عليه السلام وعلم منه الملائكةُ رغبته في إنهاءِ بغيِهم بشّـرُوهُ بموعدِ إهلاكهم: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّـبْحُ أَلَيْسَ الصُّـبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ إنّ موعد إهلاكهم يا لُوط وقت الإسـفارِ؛ وذلكَ الوقتُ قريبٌ، والاسـتفهامُ للتّقريرِ أي بلى إنّه قريبٌ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَـافِلَهَا﴾ وحينَ حانت لحظةُ العذابِ دمّر الله قرية قومِ لوطٍ حيث إنّ كلّ شـيءٍ كان عاليًا شـامخًا صيَّره هاويًا على الأرضِ؛ عذابًا على نحوِ الزّلزلة والخسـفِ الشّـديدِ، ويُناسـبه إرسـالُ الحجارةِ الذي سيذكُرُه، و أكثرُ المفسّرين ذهبُوا إلى معنى اقتلاعِ القريةِ من تحتِهم وحملها عاليًا وإرسالِها مقلوبةً؛ ثمَّ تأوّلُوا بأنّ من قُلبَ لم يُمطَرومن مُطِرَلم يُقلب؛ وقدّرُوا بأنّه جعلَ سـافلَها عاليها أيضًـا واكتفى بذكرِ الأوّل "عاليها سـافلها" لأنّه أفظع، وبينَ "عاليها وسـافلها" طباق ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِـجِّيلٍ مَنْضُـودٍ﴾ وألقينا على القريةِ المزلزلةِ الهامدةِ حجارةً من نارٍ تتتابعُ فوقَها، و"سـجّيل" الحجرُ الشّديد المطبوخ بالنّارِ، و"منضودٍ" كنضيدٍ وقد جاء في قولِه تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [ق: ١٠] أي مركّبٌ متتابعٌ، والتّعبيرُ بـــ"أمطرنا" تشـبيهٌ للحادثةِ بالمطرِ من حيثُ تتابعه في النّزولِ ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أمطرنا عليهم حجارةً بقدرٍ وحُسبانٍ إلهيّ كُلُّ واحدةٍ منها قد عُلمَ ما تُحدثه من فتكٍ وإهلاكٍ، و"مسوّمةٌ" من السّيما وهي العلامة تنبيهٌ بأنّها عاجلتهم ولم تُخطئ أحدًا ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وليست هذهِ العقُوبة وما شابهها بعيدةً عن أهلِ الظّلم والمعاصي؛ ومنها فاحشةُ إتيانِ الذّكران للذّكران التي قنّنها الغربُ اليوم باسمِ الزّواجِ المثليّ واغترَّ بذلكَ بعضُ المنتسبينَ إلى الإسلامِ؛ فوعيدُ الله شـديدٌ لهم جميعًا، وذهب بعضٌ إلى أنّ ضميرَ"هي" راجعٌ إلى القريةِ أي ليست بعيدةً عن قريشٍ وغيرِهم فليعتبرُوا بها.

[11] ولقد أجرى أكثر المفـسّرين الآية على ظاهرِها مـستأنـسين بروايات نُـسبت إلى كُتب أهل الكتاب –كما أفادَ صاحبُ التّحريرِ والتّنوير في تفسيرِ الآية– فجعلوا الطّمس عذابًا لمن راودَ فقط؛ غيرَ أنّ حكايةَ عذاب الطّمس في سورةِ القمرِ وهي التي تناولت القصّة بإيجازٍ أقربُ إلى تعميمه منه إلى التّخصيص.

١٨. شعيب عليه السلام وقومه

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)﴾

هذه القصّةُ السّادسةُ من قصصِ الأنبياءِ في سورة هودٍ المكّيّة يُحدّثنا الله تعالى فيها عن نبيّه شُعيبٍ عليه السلام مع أهلِ مدين، ومدين مدينة قرب معان في الأردن ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ عطفٌ على قصّةِ صالحٍ بتقديرِ؛ ولقد أرسلنا إلى قبيلةٍ عُرفت باسمِ "مدينَ" رسُولاً منها اسمُه "شُعيبٌ"، وأخو الجماعة الواحدُ من أفرادِها، والأخُ هنا أخو النّسبِ لا أخو الدّين، وكان يُلقّب بخطيب الأنبياء لقوّة حجّته وبيانه، وحسن إقناعه لقومه، فدعا قومه إلى عبادةِ الله قائلًا: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أذعنوا لله العظيمِ وحدهُ؛ ليس هنالك معبُودٌ غيرهُ يستحقُّ العبادة، والنّداءُ بعنوانِ القومِ استلطافٌ وتحبيبٌ، ومثل هذهِ الدّعوةِ كانت ممن قبله من الأنبياءِ؛ وكان من شأنهم جميعًا البدءُ بالتّوحيدِ ثمَّ الدّعوة إلى باقي الأصولِ والفروعِ ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ والآية بتقديرِ محذوفٍ أي لا تُنقصُوا المكيال والميزان للنّاسِ ولا تزيدُوا لأنفُسكم، وبمعناها الشّامل لا تأخذوا مال النّاسِ بنقصِ المكيالِ والميزان إذا كلتُم لهم ولا تزيدُوا لأنفُسكم إذا أذنوا أن تكيلُوا من مالِهم، و"المكيالُ والميزان" مصدرانِ أو اسما آلة تقديرِ الأجسام. وعلّل ما حمله على نهيهم بأن قال شاهدًا على حالِهم ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ إنّي أجدُ معكم من الخيرِ ما يُغنيكم عن التّطفيفِ بل والأصل أن يحثّكم على استيفاءِ الحقوقِ؛ ولا يحلُّ لكم التّطفيف مع الضّيقِ فكيف بحالِ الرّخاء! أو بمعنى إنّي أراكم على رغدٍ من العيشِ فاشكُرُوا، والخيرُ الحالُ الحسنة ومن مظهرِها الغنى ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ إنّي أخشى عليكم حالَ كُفركم بنعمِ الله أن يُصيبكم عذاب يأتي عليكم جميعًا لا يُفلت منه أحدٌ، والمحيطُ هو العذاب وليس اليوم، ولكن أسندَ الإحاطة إلى اليومِ مجازًا عقليا، والمراد به عذاب يوم القيامة، وقيل: عذاب الاستئصال والإهلاك – كما تقدم في قصة هود وصالح - والتّنويع الذي ورد في السّورةِ أشبه بهذا المقطع من الآيةِ حين قال: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود ٣]؛ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود ٢٦] للمبالغةِ في تصويرِ فظاعةِ العذابِ ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ وأحسنوا أداءَ الكيلِ والميزان واجتهدُوا في ذلكَ؛ وفي هذا تأكيدٌ للنّهيِ السّابق، يقولُ القُطب أطفيّش معلّلاً ورودَ الأمرِ بالإيفاءِ بعدَ النّهيِ عن النّقصِ :"إشارةٌ إلى أنّه لا يكفي الكفُّ عن تعمّد التّطفيف بل لابُدّ من السّعيِ أيضًا في

الإيفاءِ؛ ولو بزيادةٍ مَّا مــمّا يُتيقّنُ به الخرُوج عن النّقص"[١٢]، وتجديدُ النّداءِ بعنوانِ "يا قومِ" فيه دلالةٌ على التّلطّف والشّفقة، وقوله "بالقسط" تأكيدٌ للأمرِ بالإيفاء وتعليلٌ؛ وكأنّه قال: أوفوا كي تعدلُوا ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص؛ أي لا تتعرضُوا لأموالِ النّاسِ وحقوقهم بالأكلِ المحرّم بأيّة طريقة من طُرقِ البيع والشّــراء، والبخسُ: الإنقاص والتّقليل. وبعد التّربية في الكيلِ بالقســطِ وتعميمِ النّصحِ بحفظِ الأموال ارتقى إلى وصيّةٍ أعمّ وأشمل فقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تكونوا ممن عاشَ في الأرض يُفسدُ نظام حياتها، والعُثوّ الانحراف في الأمرِ؛ وقيّدهُ بالإفسادِ احترازًا ممَّا هو صلاحٌ كإقامةِ الحدِّ والتّعزير، وزادَ "في الأرضِ" تلويحًا بتعميمِ النّهيِ ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وما جعل الله من الحلال المشــروع هو الذّخر الحقيقيّ لكم دون ما هو حرامٌ باطلٌ، وعامّةُ الرّزقِ لله وأُضــيفت "بقيّةُ" إلى الله تشريفًا للحلال، أو بقيّةُ الله الجنّة أو الطّاعة وفي القرآنِ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ...﴾ [الكهف ٤٦] وحاصلُ كلّ ذلك واحدٌ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذا إن كنتم تصدّقون بالله وبما شــرّعَ و أنّه سيحاسبُكم، وفي مثلِ هذهِ اللّفتاتِ إلى أثرِ الإيمانِ في صلاحِ الأعمالِ وصيّةٌ لنا بأن نركّز على ترسيخِه حين نريد ســعيًا إلى إصــلاحِ أحوالنا ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ واســتيقنوا أنّي لســتُ أدوّنُ أعمالكم لأحاســبكم بها عند الله فما عليّ إلاّ البلاغ، أو بمعنى لا أحفظُكم من قبائحكم فتترُكونها، أو لا أحفظُكم من عذاب الله إن جاءكم.

١٩. مجادلة قوم شعيب لنبيهم و إقامة الحجة عليهم

﴿قَالُوا يَا شُــعَيْبُ أَصَــلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَــاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِــيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَــنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْــتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُــعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَــعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢)﴾

وبعد الوصــايا النّبويّة النّفيســة من نبيّ الله شُــعيبٍ عليه السلام لقومه أجابُوه بما ينطوي على السّخريةِ منه ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ﴾ واستعمالُ النّداءِ هنا تنزيلٌ لشُعيبٍ عليه السلام في مقام الغافل الذي يحتاجُ إلى تنبيهٍ

[12] محمّد بن يُوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، مصدر سابق، ج٧، ص٧.

ليهتمّ بما يُقال له ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ هل صارت صلاتُك تأمرُك بأن ترشدنا إلى تركِ ما وجدنا عليهِ أسلافنا من العبادةِ!؟ والاستفهامُ إنكارٌوتوبيخٌ، والمرادُ بالصّلاةِ العبادةُ المعروفة أو هي عموم الدّين، وعُبِّربالجزءِ منه مجازًا حيثُ كانت صلاته مظهرًا غالبًا عليه، ونسبُوا الأمر إليها إمعانًا في التّهكّم به ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ وهل صارت صلاتُكَ توصيكَ بأن تُعلّمنا كيف نتصرّفُ في أموالنا وأن نترُك فعل ما نشاءُ فيها من التّطفيف والبخسِ ونحوِ ذلك؟ وهنا تلميحٌ لطيفٌ إلى أثر الصّلاةِ الصّحيحةِ في تقويمِ السّلوك، وفي هذا الرّدّ من قومه مقابلةٌ لما أمرَهم به من التّوحيد و إيفاء الكيل؛ وجاءت "أو" لتُفيد معنى: لا يحقُّ أن تفرض علينا أحدهما فكيف بكلا الأمرينِ معًا ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ إنّك يا شُعيبُ صاحب الحلمِ فاعفُ عن عبادتنا وعن أعمالنا؛ و أنت الرّاشد العاقل فلا تسفّه عبادتنا، أو هو مدحٌ أريد به استهزاء؛ من بابِ تسميةِ الشّيء بضدّهِ وكأنّهم قالوا: إنّك لأنتَ المناوئ السّفيه.

ردّ شُعيبٌ عليه السلام على قومه بقولِه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ يا قومِ أنبئوني إن كنت على برهانٍ صادقٍ من الله بما لديّ من رسالةٍ ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ووهب الله لي من الرّزقِ سعةً وفضلاً؛ وجوابُ "إن" الشّرطيّة محذوفٌ دلّ عليه المقام وهو: كيف يتأتّى لي أن أترُك عبادتهُ وأعبد ما تركَ آباؤُكم وأُشارككم فيما انحرفتُم فيه؛ والحليمُ الرّشيدُ لا يفعلُ هذا! ووصفُ الرّزق بالحسنِ أدبٌ مع الله ولو مع قلّتِه أو من جهةِ نسبةِ الحسنِ له وإن كان كلّه منه تعالى، وقيل: المراد بالرّزق الحسن هنا النّبوة ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ واعلموا أنّي لستُ فاعلاً شيئًا نهيتُكم عنه، وأصلُ "أُخالفكم" من السّيرِ خلف الشّيءِ أو من المخالفة ضدّ المو افقة؛ أي قرّرلهم بأنّه قدوةٌ بفعله قبل أن ينطقَ بلسانه، وأنّ شأنه ليسَ كشأن الجبابرةِ يأمرُون بما لا يفعلُون ولا كشأن المتنطّعين في النّصح الذين همّهم مخالفة الآخر فقط. وزاد بيانًا لذلك بقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ وليس لي هدفٌ شخصيٌّ أو ماديٌّ وراء دعوتي؛ وغايةُ ما في الأمر أنّي أريد أن أدلّكم على ما تصلُح به أحوالكم بقدرِ جهدي وقوّتي، وفي هذا تقريرٌلمبدأ استيفاءِ الأسباب والجهدِ لتحصيلِ التّغيير. ثمّ يأتي الاعتمادُ والتّوكّل على الله ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ولا أجدُ ميسّرًا لما أرجوهُ من أموري كلّها إلاّ الله الواحد، وقد بدأَ شُعيبٌ في دعوتِه بحقّ الله؛ فدعا إلى التّوحيدِ ثمّ صان نفسه عن مخالفةِ ما يدعو إليهِ ثمّ اتّجه إلى دعوةِ غيرِه فسنّ تربيةً دعويةً شريفةً بتقديمِ الأهمّ فالمهم ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فعلى الله وحدهُ اعتمادي في نشرِ دعوتي ودفعِ ضررِكم، وإليهِ أرجعُ تائبًا من كُلّ ذنبٍ وخطأ، وفي هذهِ اللّفتةِ إلى التّوبةِ تقريرٌبأنّ صلاح النّفس سببٌ رئيسيٌّ لصحّةِ التّوكّلِ والعلاقةِ مع الله الذي يُوفّقُ ويهدي للخيرِ.

ويتتابعُ نُصحُ شعيبٍ عليه السلام لقومه ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ ولا تحملنّكم عداوتُكم لي بأن تُعرضوا عنِ الحقّ الذي يظهرُلكم، وأصل جرمَ أكسبَ؛ ومعنى الكلامِ أنّ شُعيبًا نهاهم مُحذّرًا مِن شقاقهم إيّاهُ أن يُكسبهم العذابَ الذي أصاب من قبلهم، وشقاق مصدرُشاقَّ بمعنى عادى وخالفَ ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْقَوْمَ هُودٍ أَوْقَوْمَ صَالِحٍ﴾ فيلحق بكم من العذابِ ما لحقَ بقومِ نوحٍ حين أخذهُم الطُّوفان أو قوم هودٍ لَمّا أُرسلت عليهم ريحٌ عاتيةٌ أو قوم صالحٍ حين نزلت عليهم الصّيحةُ والرّجفة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ وليست آثارُعذابِ قومِ لوطٍ بعيدةً عنكم؛ أفلاَ تعتبرُون؟ والبُعد مكانيٌّ أوزمانيٌّ أي لم تمرّإلاّ مدّةٌ قصيرةٌ على إهلاكهم؛ وهذا أنسبُ بمقامِ الوعظِ، أو بمعنى ليس إجرامُ قوم لوطٍ وكُفرُهم بعيدًا عنكم فأنتم أشبه بهم ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ واطلبُوا من الله غُفرانًا من الشّركِ الذي تلبّستُم بهِ وعودوا إليهِ بالإيمان والطّاعةِ والإذعانِ، ومثلُ هذهِ الوصيّةِ سبقت في مطلع السّورةِ ومع قصّةِ نوحٍ عليه السلام، ومن بابِ التّفنّن قال: "ربّكم" أوّلاً ليستعطفَهم؛ ثمَّ قال: "ربّي" ليبيّن لهم تعلّقه بهِ فيسرعُوا إليهِ كما أسرع هو ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ إنّ ربّي الذي أدعوكم إليهِ واسعُ الرّحمةِ والغفرانِ؛ مُحسنٌ إلى من تابَ كما يُحسنُ الحبيب إلى محبوبه[١٣]؛ ويودُّه خلقُه لعظيم فضله وامتنانه، والرّحيمُ والودُود اسمانِ من أسماءِ الله تعالى.

ردّ قومُ شُعيبٍ على نبيّهم بما يُوحي باحتقارهم له وتكبُّرهم على الحقّ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ يا شُعيبُ: لا نفهمُ أكثركلامكَ الذي تدعونا بهِ، وهل كلامُ الأنبياءِ إلاّ حكمٌ ومواعظُ ولكنَّ الله جعل في قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه! وإنّ شأن من يرفُض أمرًا ألاَّ يسمعَ له؛ حتّى ولو سمع ووعى ادّعى عدمَ الفهم مكابرةً ﴿وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ واعلم بأنّا نعدّك ضعيفًا بيننا، وأكّدوا كلامهم إمعانًا في إذلاله وتخويفه ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ولم يمنعنا من رجمكَ إلاَّ جماعتُك التي تنتمي إليها، ورهطُ الرّجُل أنصارُه القريبونَ الذينَ يتقوّى بهم، والرّجمُ هنا توعّدٌ بأبشعِ القتلِ أو هو كنايةٌ عن الطّردِ والإبعادِ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ولستَ عزيزًا علينا كي نحفظ لك مكانةً بيننا.

أجابهم شُعيبٌ عليه السلام بما تضمّن تأنيبًا لهم وتوبيخًا غير مبالٍ بتهديدِهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أتكونُ جماعتي التي أنتمي إليها أقوى حُسبانًا وتقديرًا عندكم من اتّقاءِ الله ومقامه، ووجهُ توبيخه لهم أنّهم حسبُوا ألف حسابٍ لوجودِ الرّهطِ ولم يتذكّرُوا رقابة الله ووجودَهُ، وهكذا ذكّرهم بأنّه متوكّلٌ على الله ليحميه لا على رهطِهِ؛ كما تضمّن هذا تهديدًا لهم ﴿وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ وقد جعلتُم مقام الله وطاعته وراءَ ظُهورِكم؛ تقُول العرب جعل الرّجل الشّيء خلف ظهرِهِ إذا لم

---

[١٣] حين فسّر القُطب أطفيّش الودود بالمحسن تاركًا ما ذهب إليهِ كثيرٌ من المفسّرين من تفسيرِهِ بالشّديد الحبِّ علّل ذلك بقوله: "لأنّ الودَّ كيفيّةٌ نفسانيّةٌ انفعاليّةٌ؛ والله لا يتّصفُ بذلك" المحمّد بن يُوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، ج٧، ص١٤.

يأبه بهِ، والظِّهريُّ نسبةٌ إلى الظّهرِ من غيرِ قياسٍ ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ إنّ ربّي عالمٌ بكلّ ما تأتونه من الأعمالِ وسوف يُجازيكم عليها، وفي الآيةِ تعريضٌ أُتحفَ بتأكيدٍ بأنّه سيُعاجلُهم بعقابٍ إذا تمادوا.

٢٠. تنجية شعيب عليه السلام ومن آمن معه، وإهلاك الظالمين

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾

ثمّ ينذرُ شُعيبٌ عليه السلام قومه بقولِه: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ ويا قومِ اجتهدُوا فيما أنتم عليهِ من المخالفة والكفر إنّي مستمسكٌ بديني عاملٌ به، والمكانة الهيئةُ والحالُ، من قولك: اثبت على مكانتك يا فلان أي لا تنحرف عما أنت عليه. أي: اثبتوا على مخالفتكم، وفي هذا صورةٌ من تهويلِ التّهديدِ ما لا يخفى، ولا يأمرُ النّبيُ بالبقاءِ على الكفرِ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ وسوف ترون من منّا سينالُ عذاب الخزيِ والمهانةِ في الدّنيا قبل الآخرةِ؟ ومن منّا الكاذب فيما يدعو إليهِ، وفي الآية إيجازٌ وتقديرُ الكلامِ من يُعذّب ومن ينجو ومن هو كاذبٌ ومن هو صادقٌ، واستعمالُ "سوف تعلمون" تضمّن تهديدًا آخر ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ و انتظرُوا ما أحذّركم منه إنّي منتظرٌ معكم؛ وفي هذا نوعٌ آخر من التّهديد، وكُلّ هذا من أجلِ إقامةِ الحجّةِ وقرعِ أسماعهم بالنّذرِ لعلّهم يذّكّرون.

ثمّ يقصُّ الله موقف إهلاك القوم بعد أن ثبتَ إصرارُهم على الشّركِ والعصيانِ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وحينَ اقترب موعدُ هلاكِ قومِ شُعيبٍ حفظَ الله نبيّهُ ومن صدّقهُ و اتّبعهُ من العذابِ، وظاهرُ التّنجيةِ أن تكون بعد حكايةِ حصولِ العذابِ و إنّما قدّمها لبيانِ منّتِه، وزاد إثباتًا لامتنانه وفضلِهِ عليهم بأن قال: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وفي ذلك رحمةٌ من الله لهم؛ فلو شاء لأهلكهم ابتلاءً معهم ولا يُعذّب الله إلاّ بعدلٍ، أو المراد أنجيناهُم بسببِ إيمانهم الذي وفّقناهم إليه ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وتعرّض قومُ شعيبٍ إلى عذابِ الصّيحةِ[١٤]؛ أي الصّوتِ المدوّي الشّديد والله أعلمُ بهِ، والذي كان سببًا للقضاءِ عليهم، وذكرهم باسمِ الظّلم تبيينًا للسّببِ الذي استحقُّوا به العذاب وليزجرَ غيرهم، على أنّ العرب تقُول: صاح العذاب بالقوم إذا هلكوا بأيّ سببٍ؛ وغيرُ بعيدٍ أن يكون هلاكُهم

[١٤] وقد وردَ عنهم في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف ٩١] وفي قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشّعراء ١٨٩] وهي نقمٌ تعدّدت في عذابِ قومِ شُعيبٍ الذي أهلكوا بهِ أوردَها جميعًا لتصويرِ فظاعةِ عذابِهم.

بغيرِ عذابِ الصّـوتِ المدوّي؛ وقد سـبقَ أنّه أنذرهم من عذابِ قومِ نوحٍ وهودٍ وصـالحٍ ﴿فَأَصْـبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وبعد لحوقِ العذابِ بهم صـارُوا هامدينَ في بيُوتهم موتى لا يتحرّكون، والجثوم بالمكانِ لزومه، وفي ذكر الدّيارِ هنا إيماءٌ إلى أنّه عذابٌ باغتَهم فلم يبرحوا موطنَ سـكنِهم ليفرُّوا منه ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ اسـتأصلهم العذابُ وكأنّهم لم يعمرُوا أرضـهم قطُّ، يُقالُ: غني بالمكانِ إذا أقام بهِ ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ ألاَ قد أبعد الله مدينَ من رحمتِه بسببِ عتوّهم كما عتت ثمودُ قبلهم فأبعدهم من رحمتِه، وفي هذا التّشـبيهِ لطافةٌ لا تخفى؛ فقد كانت نهايةُ القومينِ متشـابهة كما سـلفَ عن قصّةِ ثمودَ في السّـورةِ، ويُحتملُ أنّ ذكر ثمود هنا اسـتطرادٌ لمزيدٍ من ذمّهم إذ كانوا أشـدّ عتوًّا، وقوله: "بعدا" ظاهره الدعاء، ولكنه في الواقع إخبار؛ لأنه من الله والله قادر على كل شـيء فغير محتاج للدعاء على أحد.

٢١. إرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، وسنة الله في إهلاك القرى

﴿وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا مُوسَـى بِآيَاتِنَا وَسُـلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِـيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَـيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَـدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْـهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤)﴾

ويأتي إلى آخرِ قصّـةٍ في السّـورةِ ليُحدّثنا عن موسـى عليه السلام وما كان له من شـأنٍ مع فرعون وحاشـيتِهِ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا مُوسَـى بِآيَاتِنَا وَسُـلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ ولقد بعثنا نبيّنَا موسـى إلى فرعون وقومه؛ وجعلنا معهُ آياتٍ تتلى ومعجزاتٍ باهرةً تجري على يديه كالعصـا و أيدناهُ بالحقّ الظّاهرِ البيّن، والآياتُ ما يُتلى أو يُشاهد كما أنّ السّلطان هو الحجج التي تنشأُ عن آياتِ الكتابِ ومعجزاتِ النّبي، والملأُ الأشـرافُ والوجهاء وقد يرادُ بهِ كلّ الأتباع ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وبعدما دعاهم موسـى عليه السلام إلى الله عصوهُ وأطاعُوا أمر كبيرِهم فرعون، و(أمرُ) في الآية لفظٌ جامعٌ لطريقه ونهجِه أو هو ضدّ النّهي أي أمرُه لهم بالشّـرك والكفرِ. واحترازًا من فهمِ أنّ طاعة الكبراءِ دائما وفي كلّ الأحوال مذمومةٌ قال: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِـيدٍ﴾ أطاعُوا أمرَ فرعون حال كونِ ما يوجّههم إليهِ ضـلالةً وسـفاهةً، وأعادَ اسـمَ فرعون ظاهرًا لنكتةِ التّشـهيرِ بهِ. ثمّ يُبيّنُ وجهَ ذلك بأنّ فرعون سـاق أتباعه بمنهجه إلى الهلاكِ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ يتقدّمُ فرعونُ يوم الحشرِ أتباعه الذين استخفّهم فأطاعُوه؛ فيكون سببا في دخولِهم النّارِ الأبديّةِ؛ هذا كما تقدّمهم في الدّنيا وكان سائقهم إلى الكُفرِ، وجاءَ "أوردَ" بالماضي لإفادةِ التّحقّقِ، وفي الآيةِ استعارةٌ تهكُّميّةٌ لورُودِ موضعِ الماءِ واستفتاح السّيد للقوم إذنًا لهم بأن يشربُوا؛ لأنّ الحال مختلفٌ مع النّارِ فهي مقرُّ العطشِ والاحتراقِ لا موردُ الشّربِ والارتواءِ ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ساء ذلك الموضع الذي صيّرهُم إليه موضعًا لأنّه نارٌ وعذابٌ، والوِردُ الحظُّ من الشّيءِ المقصودِ، والمورود الموضعُ المدخُول ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وألحق الله بهم فوق عذابِهم الدّنيويّ بالغرقِ وغيرِه لعنةً طردهم بها من رحمتِه في الدّنيا ويوم يقومون للعرضِ والحسابِ، والتّعبير بالإتباع استعارةٌ لحالِ الذي تبعهُ شخصٌ ليدفعه إلى هاويةِ هلاكٍ وهو لا يدري ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ ساءَ عطاءً ذلك الذي أُعطوهُ وهو اللّعنةُ الدّنيويّةُ والأخرويّةُ، ويُحتملُ أنّه أراد ساء ما اجتمع عليهم وترادفَ من لعنةِ الدّنيا ولعنةِ الآخرةِ مبالغةً وتهكّمًا بهم، والرّفدُ العطاءُ والإعانة، والمرفُود الذي أُعطي شيئًا أُعينَ به.

ثمَّ يأتي إلى جامعِ العبرةِ والذّكرى من سبعِ قصصٍ ذكرَها في السّورةِ مخاطبًا مُحمّدًا ﷺ ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ ذلك الذي سبقَ مِن قصص الأنبياء في السّورةِ وغيرِه مِن أخبارِ الوحيِ الإلهيّ عن القرى الغابرةِ وأهلِها نسرُدُه عليكَ؛ والمرادُ فافهمه وتدبّرهُ ولا تشكَّ في حقائقِه، و أيضًا تسلّ بهِ واعلم أنّ الله قادرٌ على أخذِ الكفّارِ مِن قومكَ كما أخذ مَن قبلهم، وجاءَ "نقصّهُ" بالمضارعِ لاستحضارِ معاني تلك القصصِ وبلاغتها ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ بعضُ تلك القرى ما زالت قائمةً بآثارِها كالأهرامِ؛ ومنها ما اندثرَ وذهبَ كديارِ عادٍ، والحصيدُ المنتهي بالحصدِ والاستئصالِ، وفي الآيةِ استعارةٌ لصورةِ الزّرعِ الشّاسعِ الذي أُخذ جلُّهُ وبقي بعضُه قائمًا يُشاهدُ؛ وقريبًا من ذلك مَثَلُ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس ٢٤] ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ولم يظلمِ الله قريةً أبدًا بالعذابِ ولكنّ أصحابها هم من عرّضُوا أنفُسهم للعذابِ الإلهيّ بمخالفةِ شرعةِ وسُننهِ حتّى لحقَهم مقتُ الله ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولم تنفعهُم بأدنى نفعٍ أوثانُهم ومعبُوداتُهم التي كانُوا يتوسّلُون إليها وينسونَ الله، وعبّر بالمضارعِ في "يدعون" لتقريرِ عادتِهم واستحضارِ حالهم، ولفظُ "شيءٍ" عامٌّ ووردَ نكرةً في سياقِ النّفيِ فنفى عمومَ النّفعِ ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حينَ حقَّ عليهم عذابُ الله وحان وقته عليهم، و"لَمّا" للتّوقيتِ أي في ذلك الوقتِ بالأخصّ ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ لَم يُكسبهم من أشركوهم بالله إلاّ خسارةً محضةً وهلاكًا، و"تتبيبٌ" من التّباب وهو الهلاك، ومجيءُ الخسران ممّا قُصِدَ للنّفعِ حسرةٌ وشرٌّ آخر ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ ومثل ذلك الأخذِ بالعذابِ الذي قصّهُ الله عن الأقوامِ السّابقينَ يأخُذ الله كُلّ قريةٍ عصت أمرَ ربّها وتعدّت حُدوده؛ والتّشبيه في كيفيّةِ الأخذِ وعاقبتِه، وتضمّنَ هذا تهديدًا لكلّ عاصٍ لأنّه جزءٌ مِن أهلِ قريته، فعَنْ أَبِي

مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ" قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ الآية[١٥] والأخذُ لأهلِ القرى و إنّما أسند إلى القرى مجازًا. ولمزيدِ بيانِ الأخذ وتأكيدِه قال: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ إنّ عذاب الله في استئصال الأقوام مؤلمٌ للأجسادِ شديدٌ على القلوب؛ لا طمع في دفعِه إذا جاءَ ولا سبيلَ للخلاصِ منه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ إنّ في مجموعِ تلك القصصِ عبرة جليلة لمن عاشَ خائفًا من عذابِ الله الأخرويّ؛ وخصَّ الآية بمن خافَ عذابه لأنّه هو المنتفع بها، ومعنى أنّها آيةٌ له أي لَمّا حصلَ العذابُ الدّنيويّ كان أمارةً له لحصُولِ العذابِ الأخرويّ لأنّ كُلاًّ من وعدِ اللهِ؛ ومن وجهٍ آخر قد زادهُ العذاب الدّنيويّ إيمانًا بوقوعِ عذابِ الآخرةِ لأنّه صورةٌ مصغّرةٌ عنه، وبذلكَ لم يشكّ فيهِ بل سعى إلى اجتنابِ مسبّباتِه لينجوَ منه ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ ذلك اليوم الآخر يومٌ سيُحشرُ لأجله جميعُ النّاسِ ليلقى كُلٌّ حسابه وجزاءَ ما عمله، وأخبرعن اليوم بجملةٍ اسميّةٍ لإفادةِ الوقوع؛ كما أفادت "لهُ" مبالغةً في الإخبارِ وكأنّ النّاس لم يُجمعُوا إلاّ لأجله ولم يتخلّفُوا عنه لوجوبِ وقوعه بهم، وزيادةً في التّهويلِ منه قال: ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ وذلك اليوم يشهدُهُ خلقٌ كثيرٌ من الإنسِ والجنّ والملائكةِ وغيرِهم، يُقال عن شيءٍ إنّه مشهودٌ إذا عظمَ حدثُه؛ وليس من بابِ أنّه مشهودٌ لذاتِه بل لما تخلّله من أحداث ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ ولم نكشف عن ذلك اليومِ وأهواله وأحواله إلاّ لأنّ أجله لم يحن بعدُ؛ هذا بناءً على أنّ المشركين كانوا يستعجلُونه ويحسبُون أنّ الله سيغيظُهُ عتوّهم فيُعجّلهُ جهلاً بمقامه تعالى، والتّأخيرُ مجازٌ عن الإتيانِ به في الأجلِ المعلُوم عند الله، والوصفُ بالمعدود كنايةٌ عن القلّةِ والانتهاءِ التي حاصلُها اقتراب ذلكم الأجل.

٢٢. تمايز الناس يوم القيامة إلى فريقين: شقي وسعيد

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)﴾

وبعد الإشارةِ إلى اليومِ الآخرِ وأجلِه يأتي إلى تفصيلِ بعضِ مو اقفه ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وحينَ يثبُت ذلك اليوم العظيمُ الذي يُجمعُ فيه النّاسُ للحسابِ لا يبقى للخلقِ كلامٌ ولا احتجاجٌ ينفعُ إلاّ ما أذن الله به، ولعلّ المراد بالكلامِ هنا ما كان في إطارِ الشّفاعةِ، وعليه لا يتعارضُ مع ما أثبته القرآنُ

[١٥] رواهُ البخاري من طريق أبي هريرة، ك: تفسير القرآن، ب: قوله: وكذلك أخذُ ربّك ...، ر: ٦٤٦٨(٦/٧٤).

من كلامٍ للكفّارِ كقولِهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام ٢٣] فهو ممّا أذن به وَعلمه، ومعنى "يومَ" هنا الحينُ والوقتُ وليس يوم الآخرةِ ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ والنّاسُ في ذلك الموقِف فريقانِ لا ثالثَ لهما؛ فريقٌ كُتبت عليهِ الشّقاوةُ الأبديّةُ، وفريقٌ فازَ بالسّعادةِ السّرمديّةِ، وقدّم ذكرَ الشّقيّ لأنّ المقام للإنذارِ، وبينَ "شقيٌّ وسعيدٌ" طباقٌ وبعده لفٌّ؛ ونشرُهُ على التّرتيبِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ وفريقُ الأشقياءِ مصيرُهُ إلى عذابِ النّارِ الدّائم يجدُون فيهِ اختناقًا وضيقًا، وتلك حالٌ عبّرعنها بقولِه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌوَشَهِيقٌ﴾ يجدون من أنفُسهم جهدًا بالغًا كُلّما حاولُوا التّنفّس والتّروِيح عن ضيقِهم، والزّفيرإخراجُ النّفس بتكلّفٍ وتردّدٍ من الزّفرِوهو الحمل الثّقيل، والشّهيق ردُّه بتكلّفٍ مِن شهقَ الشّيءُ إذا طالَ كما يُقالُ علوٌّ شاهقٌ، ويُحتملُ أنّ في هذا استعارة لصراخِهم، كما أنّه كنايةٌ عن حياتِهم وعدمِ موتِهم؛ أكّدها بقولِه: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يبقون في النّارِ بقاء السّمواتِ والأرضِ؛ وهي إمّا سموات الدّنيا وأرضُها على سبيلِ الْمَثَلِ المحكيّ عن العربِ إذا أرادُوا التّعبيرَ بالبقاءِ قالُوا: شيءٌ دائمٌ دوام السّماءِ والأرضِ، أو هيَ سمواتٌ وأرضٌ في الآخرةِ لا تفنى أبدًا -والله أعلمُ بها- ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء مشيئة الله يرد في كلام الله للتنبيه على أن المخبرعنه كائن بمشيئة الله فلو شاء خلافه لكان، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله﴾ مع القطع بعدم نسيانه صلى الله عليه وسلم شيئاً مما أوحاه الله إليه، والآيات المصرحة باستمرار العذاب كثيرة وصريحة والعقيدة تؤخذ عن الصريح، أو يكون المعنى: إلاَّ زمنَ ما قبل دخولهم النّار من برزخٍ وحشرٍوحسابٍ؛ أو إلاّ فريقًا شاءَ الله ألاَّ يدخُل النّار[١٦]؛ وهو الذي سيذكُرُه، وعلى هذا تكون "ما" بمعنى: من، وعلى كلٍ فلا دليل في الآية على خروج الأشقياء من النار؛ نظرا لهذه الاحتمالات في معناها، فلا تترك الأدلة الصريحة في خلودهم؛ وممّا يُقوّي هذا أنّ الاستثناءَ المقابل لِلذينَ سُعدُوا لم يصحّ بحالٍ أنّه استثناءُ جزءٍ من السّعداءِ لا يخلُد في الجنّةِ بعد دخولها، ثم إن الآية واضحة الدلالة في الخلود إلا ما استثني، فلو كانوا يخرجون لانقلب معنى الآية، ولكانت فترة ما بعد خروجهم أكبر من فترة بقائهم في النار، لأن حياة الآخرة لا انقطاع لها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ إنّ ربّكَ أيّها الرّسُول يفعلُ ما يشاءُ بخلقِه ولا يحقُّ لأحدٍ ولا يستطيعُ أن يعترضَ إرادتَه، وعِلمنا بأنّ الله عادلٌ حكيمٌ يجعلُنا ننزّهه من أيّ ظلمٍ أو جورٍ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ﴾ وأمّا الذينَ توّجهم الله بالسّعادةِ الأبديةِ فيفوزون بالجنّةِ الدّائمةِ، وجاءَ "سُعدُوا" مبنيًا لِما لم يُسمّ فاعله تنويهًا بأنّ الله هو من أكسبَهم تلكَ المنقبة، وفي هذا تسليةٌ وتبشيرٌ للرّسُول ﷺ وأصحابه كي يثبُتوا على الإيمان ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يتنعّمونَ في الجنّةِ أبد الآبدينَ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء مشيئة الله يرد في كلام الله للتنبيه على أن المخبرعنه كائن بمشيئة

[١٦] وقد حكى القرطبيُّ في تفسيرِه للآيةِ أزيد من عشرة أقوالٍ؛ منها أوجهٌ تحتملُها الآية أيضًا.

الله فلو شاء خلافه لكان .كما تقدم قبل قليل .أو المعنى: إلاّ زمنًا قبل دُخولهم الجنّة من برزخٍ وحشرٍ وحسابٍ وزمنَ من يسبقهم في الدّخول؛ على أنّه لا يجوزُ الاستثناءُ فيمن يدخُلُ النّارثمَّ يخرجُ إلى الجنّةِ فيكون فاته بعضُ النّعيمِ، أو الاستثناءُ تنبيهٌ على أنّه ليس تخليدُهم في النّعيم بواجبٍ على الله بل هو تفضّلٌ منه ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وذلكم النّعيم فضلٌ لهم دائمٌ لا ينقطعُ أبدًا، و"مجذوذ" من جذّ الشّيءَ إذا قطعَه، واختيارُلفظِ العطيّةِ تنبيهٌ آخر إلى أنّ الجنّة ليست مقابل العمل -وإن وجبت بسببِه- بل هي فضلٌ ومنّةٌ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ فلا تشكَّ في صحّةِ ما تدعو إليه وفسادِ ما يعبُدهُ هؤلاءِ الكفّارُحولكَ؛ بعد أن علمت عاقبةَ الأمم العاصيةِ في الدّنيا ومصيرَكُلٍّ مِن الأشقياءِ والسّعداءِ في الآخرةِ، والآيةُ على تقديرٍ محذوفٍ كما رأيتَ عُلم من المقامِ، والخطابُ للرّسُول ﷺ ويعمُّ غيره[17] ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ليست عبادتُهم التي يقومون بها ويدّعون صحّتها إلاَّ كعبادةِ من سبقهم من الأسلافِ كعادٍ وثمودَ وغيرِهم؛ و أفادت "من قبلُ" معنًى إضافيًّا على ذكرِ الآباءِ وهو التّنبيه على أنّ اللاّحقَ منهم يقلّدُ السّابق، والمعنى كما أُهلك أسلافُهم بسببِ شركهم و انحرافهم سيُهلكُ قومُك كذلك، فتضمّنَ تسليةً له وتثبيتًا من جهةٍ وتهديدًا لقومِه من جهةٍ أُخرى، وعلى ضوءِ هذا التّأويلِ تُفهم تتمّةُ الآيةِ ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ و إنّا سنُوصلُ إليهم كلّ ما قُدّرلهم من النّعيمِ الدّنيويّ قبل أخذِهم لا ننقصُ منهُ شيئا، أو بمعنى المبالغةِ في الوعيدِ أي نسلّطُ عليهم ما كُتب لهم من العذابِ لا نخفّفُ منه شيئا، ولعلّ التّوفية هنا تهكّمٌ بهم حيث لَمّحَ بأنّ لهم عطاءً من عذابٍ ينتظرُهم فوفّاهُ لهم، وقولُهُ "غيرُمنقوصٍ" تأكيدٌ لإعلانِ التّوفيةِ.

٢٣. الأمربالاستقامة على الدين، وعدم الركون إلى الظالمين

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُوَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣) وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِوَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْفَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَالْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾

ويعودُ الحديثُ إلى ذكرِموسى عليه السلام على وجهِ تسليةِ مُحمّدٍ ﷺ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ ولقد أوحينا إلى موسى عليه السلام التّوراةَ كما أوحينا إليك القرآن فاختلفَ قومُه في شأنها -مع أنّهم أهلُ

[17] ولا يخفى أنّ تركيب "لا تكن" جرى مجرى المثل أنّه يرادُ به إيصال الخبر فحسبُ كـ "لا محالة" و"لاشكّ"، وعلى هذا فالكلامُ على أصلِه.

كتابٍ- كما اختلف قومُك في شأنِ القرآن؛ ومعنى الاختلاف فيهِ الإيمان ببعضٍ دون بعضٍ وإظهارُ بعضٍ وكتمُ بعضٍ وتأويلُ بعضه حسب الهوى وزيادةُ ما ليس منه فيه ونحو هذا؛ وهذه الأمور لا تقعُ منهم جميعًا فيظهرُ الاختلافُ بينهم، وعليهِ تسلَّ أيّها الرّسُول بهذا ولا يأخذنّك همٌّ بسبب قومك ما دُمت قد بلّغت ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولولا أنّ قضاء الله سبق بتأجيلِ الحسابِ والجزاء إلى اليومِ الآخرِ لعاجلَ الله الذين اختلفُوا في شأنِ القرآنِ بالباطلِ وحكم بينهم في الدّنيا، وفي هذا تهديدٌ عظيمٌ لهم، والكلمةُ في الآيةِ كنايةٌ عن قضائه الأزليّ ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ وإنّ قومك أيّها الرّسُول ﷺ لفي شكٍّ عظيمٍ من هذا القرآنِ؛ وسبق تفصيلٌ عن مثل هذهِ الآيةِ في السّورةِ عند قوله: ﴿وَ إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود ٦٢] ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وكلُّ مَن ذُكِر لك أيّها الرّسُول ﷺ من أهلِ الشّقاءِ والسّعادةِ مهما رأوا في الدّنيا من تعاسةٍ أو سعادةٍ لم يُعطَوا جزاءهم الحقيقيّ بعدُ، وفي اليومِ الآخرِ سيُوفّي الله للشّقيّ حقّه فيعذّبه جزاءَ ما عمل؛ ويُوفّي للسّعيدِ أجرهُ فيجازيَه بما سعى ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إنّ الله عالمٌ بكلِّ أعمالِهم مطّلعٌ عليها بدقائقها وتفاصيلها لا يخفى عليهِ شيءٌ منها.

وبعد نهيِ الرّسُول ﷺ مِن أن يكون في مريةٍ من فسادِ عبادةِ قومه؛ وتسليته في شأنِ الاختلافِ في الكتابِ؛ تفرّعَ مِن ذلك إيصاؤُه بـ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ فاثبُت على نهجِ الاستقامةِ كما أمرك الله، فالخطابُ للرّسُول ﷺ على سبيلِ إثارة مشاعِره وهزّهِ؛ وهو لا شكّ على طريقِ الاستقامةِ و إنّما المراد اثبت ودُم وزد على ذلك، ثمّ عمّ أتباعه بقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ ومن تخلّى عن الشّركِ والتزم طريقَ الإنابةِ معكَ، وفي لفظِ "معك" ما دلّ على اشتراطِ اتّباعِ الرّسُول ﷺ وفق طريقته وسنّته؛ كما أنّ "كما أُمرتَ" فيه دلالة على أنّ الرّسُول يُطاعُ لأنّه مأمورٌ من الله وطاعتُه طاعةٌ لله ﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولا تتجاوزُوا مَعشرَ المؤمنين حدودَ الله التي جعلها لكم، فإنّ الله مطّلعٌ على أعمالكم وسيُحاسبُكم عليها، وتضمّن هذا زجرًا وتخويفًا من الطّغيان في سياقٍ ضمّ جوامع الوصايا الدّينيّة، واختيارُ اسم الله البصيرِ هنا تنبيهٌ بأنّ الطّغيان شاملٌ لما ظهر وخفيَ ولا يقتصرُ على العظائم. ثمّ يرشدُنا الله إلى سبيلِ تجنّب الطّغيانِ قائلاً: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ ولا تميلُوا بقلوبكم إلى أهل المعاصي والأهواءِ ولا تقتربُوا منهم بمخالطتهم؛ وفي الآيةِ تقدير محذوفٍ أي فيغرّوكم لاتّباعهم، فيحقّ عليكم عذابُ النّارِ الدّائم، والآية في ولاةِ الأمورِ وذوي المكانة بالأخصِّ لأنّهم يدفعون إلى ذلك بسلطتِهم وتشملُ كلّ ظالمٍ، وقيل: الرّكون الميل اليسير فيكون الميلُ كلّ الميلِ أشدّ ظلمًا؛ على أنّ هذا في الذي يميلُ فكيف بالظّالم! والمسُّ الإصابة الخفيفة ويردُ لما اشتدّ وطالَ منها كما هنا ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ وليس لكم حال مُخالفتكم لأمرِ الله أيّ وليّ يحفظُكم من عقابِ الله وعذابِه، و أفادت "ثمّ"

التّراخي لاستبعادِ النّصرةِ لهم، وفي هذا تأكيدٌ وإيجابٌ للتّبرّؤ من أهلِ المعاصي وهجرانهم. ثمّ يعودُ بالخطابِ إلى النّبيّ ﷺ ليقول له: ﴿وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ وواظب على أداءِ الصّلاةِ في أوّل النّهارِ وفي ذلك صلاةُ الصّبح؛ وفي آخرِه وفيه الظّهر والعصرُ باعتبارِ أنّ بين وقتيهما اشتراكًا ، هذا على أنّ الصّلواتِ الخمس قد فرضت، وتخصيصُ طرفي النّهارِ بالصّلاةِ فيه حكمةُ أن يبدأ المسلم يومه بمناجاةِ الله يطلُب حفظه مِن الذّنوبِ وينتهي بذلك تائبًا عمّا قد يقعُ فيهِ ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ وواظب على الصّلاةِ باللّيل؛ وفي ذلك صلاةُ المغرب والعشاء وقيام اللّيل[١٨]، و"زُلَفًا" جمعُ زُلفى وهي القربى، أُطلقت على ساعاتٍ من اللّيلِ مجازًا لأنّها سببُ التّقرّبِ إلى الله بالعبادةِ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إنّ ملءَ الأوقات بالطّاعاتِ يُنسي التّفكير في المآثم والعصيان ويدفعُه إذا بدا؛ وهذا أشبه بمعنى قوله: ﴿وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت ٤٥]، أو بمعنى إنّ الصّلوات الصّحيحة سبب تكفيرِ الذّنوبِ كما في الحديثِ، وهو المرويُّ عن أبي بكرٍ رضي الله عنه؛ أنّه سمع رسُول الله ﷺ يقول: "مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ" [١٩]، ، والمراد بالذنوب المكفرة الصغائر لحديث : أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر"[٢٠]، وعلى كُلٍّ هو تقريرٌ بأنّ القرباتِ لا تجتمعُ مع السّيئاتِ ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ ذلك السّابق من الأوامرِ بالاستقامةِ و إقامةِ الصّلاةِ وغيرِه تذكيرٌ لمن شأنه التّذكّر، وفي "ذكرى للذّاكرين" جناسُ اشتقاقٍ ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ والزم الصّبر أيّها الرّسُول ﷺ على كُلّ ما تلقاهُ من قومك وعلى ما كُلّفت به؛ فإنّ وراءَ ذلك خيرا لك تلقاهُ عندَ الله؛ فالله لا ينسى ولا يهملُ ثواب من أخلصَ في عمله وأحسن، ولم يقل: "أجركَ" وجعل بدل الضّمير اسم "المحسنين" ليبيّن الجزاء بسببه، ووردتِ الأوامر "فاستقم، و أقم الصّلاة، واصبر" بلفظِ المفردِ لتتوجّه إلى الرّسُول ﷺ بالأخصّ رفعًا من مقامه لأنّه قدوة يُقتدى به، وأمّا النّهيُ بـ"لا تطغوا ولا تركنوا" فوردَ بالجمعِ مناسبةً لحالِ أمّته و أتباعه.

٢٤. أسباب أخذ القرى بالعذاب وسنة اختلاف البشر

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا

---

[١٨] ظاهرُ الآيةِ لا يحتملُ اكتشاف أنّها خمسُ صلوات؛ وإنّما هذا موقعُ إجمالٍ من القرآن علمنا تفصيله من السّنّة.

[١٩] رواهُ أبو داود، كتاب: فضائل القرآن، ب: في الاستغفار، رقم: ١٥٢١(٢/٦٣).

[٢٠] رواه مسلم: ك: الطهارة، ب: الصلوات الخمس والجمعة، ر:٢٣٣(١/٢٠٩).

مُصْـلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾

ويتواصلُ الكلام في شأنِ أهلِ القرى وأسبابِ أخذِهم بالعذابِ وسنّةِ اختلافِ البشرِ ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَـادِ فِي الْأَرْضِ﴾ فهلاّ وُجدَ من أصـحابِ القرى قبلكم أيّها النّاس أفرادٌ صالحون يأبون الإفساد في الأرضِ وينهَون عنه؟ والآية تضمّنت تحسّرًا وتفجُّعًا فهي كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْـرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس ٣٠]، أو هي نهيٌ لنا أن نكون كمن سـبقنا حين لا ننهى عن الفسـادِ والمنكرِ إذ يُفهم من تحضـيضِ الفائتِ تحذيرُ اللاّحق، والقرون مجازٌ عن الأممِ التي عمّرتها، يُقال: بقيّةُ القومِ يرادُ بهِ خيارُهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ باسـتثناءِ قلّةٍ من أهلِ الإيمانِ أنجاهُم الله ممّا أصابَ أقوامهم لأنّهم اتّبعوا شريعة الله التي تدعو إلى الإصلاحِ ونبذِ الفسادِ ونهوا عن الفساد، والإشارةُ إلى النّاجين هنا عودٌ إلى ما سـلف من قصـصٍ في السّـورةِ ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ولقد سـلكَ أغلبُ أهلِ القرى الذين ظلموا أنفسـهم بالشّـركِ والمعاصـي طريقَ الشّـهواتِ والملذّاتِ وكانوا أصحابَ آثامٍ عظيمةٍ؛ وفي هذا بيانٌ للفسادِ السّابقِ، وذكرهُم بالظّلمِ والإجرامِ تبيينًا لما اسـتحقُّوا بهِ الذّمّ، والتّرف الميلُ إلى لذيذ العيشِ بلا ضـابطٍ، والذي أترفهم هو الله وبناءُ الفعلِ هنا للمجهول شـبيهٌ ببنائه للمجهول في قولِه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران ١٤]، ومعنى ما اترفوا فيه: ما وسع الله عليهم من النعم فاشـتغلوا بالتلذذ بها، وأعرضـوا عن دين الله واشـتغلوا عن النهى عن الفسـاد بتوفيرها واكتسـابها والمحافظة عليها لهواهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْـلِحُونَ﴾ ليس من سُـنّةِ الله أن يأخذ بالهلاكِ قريةً أو دولةً كانت مؤمنةً على نهجِ الصّـلاحِ، والله منزّهٌ عن كُلّ ظلمٍ، وذكرَ الصّـلاح بالخصـوص لأنّه يشـملُ الإيمان الصّـادق والالتزام؛ أي فالله متوعّدٌ بالهلاكِ من ادّعى الإيمان واسـتكبر أو تظاهرَ بالصّـلاحِ وبقي على كُفرٍ أو شـركٍ ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ والله قادرٌ على أن يجمعَ النّاس على ملّةٍ واحدةٍ ملّةِ الإسـلام والصّـلاح؛ ولكنّه لم يشـأ ذلك لحكمةٍ أرادها وهي الابتلاءُ بالاختلافِ، فجعل للناس حرية الاختيار بين الإيمان والكفر، ولم يجبرهم على أحدهما، والآيةُ لم تحدّد نوعَ الأمّةِ أهي مسـلمةٌ أم كافرة؟ وإنّما فهم ذلكَ من مقتضـى السّـياقِ؛ ومن آياتٍ أُخر كقولِه: ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس ٩٩] ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ولا يزالُ النّاسُ مختلفينَ في أديانهم ومَذاهبِهم مع أنّهم أمرُوا أن يتّحدُوا ويتقاربُوا ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ إلاّ فريقًا من أهلِ الحقّ سـدّدهُم الله لَمّا علم الخير في قلوبهم فكانوا أولي وحدةٍ، وفي الآيةِ معنى "الاختلافُ رحمة" لَمّا عُلم أنّه لا مناص من الاختلافِ في الفرُوعِ والله قد رحمَ هؤلاءِ، وفي قولِه: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس ١٩] تنبيهٌ إلى أصـلِهم الذي كانوا عليهِ على عهدِ آدم مع تبيينِ ما آلُوا إليهِ؛ فلا

يتعارضُ مع الآيةِ؛ مع أنّ فيهِ إيضاحًا لما يأتي من قولِه: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ الإشارةُ إلى الرّحمةِ أي خلقهم ليرحمهم لكنّهم اختلفُوا، أو الإشارةُ إلى الاختلافِ والرّحمة معًا بمعنى خلقَ السّعداء للرّحمة وخلقَ أهل الشّقاءِ للاختلافِ؛ لعلمه بما في قلوبهم من التوجه لذلك، ولا يصحُّ أنّهم خلقُوا جميعًا لأجلِ أن يعيشُوا مختلفينَ لأنّهم لو خلقُوا لأجلِ ذلك لم يُعذّبُوا بسببِه؛ أو يُؤوّل بأنّه خلقهم على قابليّةٍ للاختلافِ بينهم وكان مريدًا لذلك لأجلِ أن يبلو بعضهم ببعضٍ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وقضاءُ الله سبقَ بأنّه سيجمعُ جميعَ الأشقياءِ من الجنّ والإنسِ في عذابِ جهنّم، وهذه الجملةُ تشرّبت معنى القسمِ مع التّأكيدِ الذي استُفيد من "تمّت ولَأملأنّ"، ولَمّا كانت "من" للتّبعيض فُهم أنّ "أجمعين" ورد لتأكيدِ أنّ جهنّم للثّقلينِ كليهما لا لتأكيدِ أنّها لجميع أفرادِ الجنسينِ، واستُفيد من معنى الملء توعّد الله بحشرِ كُلّ الظّالمينَ في جهنّم مهما كثر عددهم وأنّ جهنّم ليست بحالٍ تضيقُ عنهم.

٢٥. تثبيت قلب الرسول ﷺ بأنباء الرسل قبله وتوعد الكافرين بالعذاب

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾

ويختمُ السّورةَ التي كان معظمُها في قصصِ الأنبياء بجوامعِ الوصايا مثبّتًا قلب الرّسُولِ ﷺ ومسلّيًا فؤادهُ ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وجميعُ ما قصصناهُ عليكَ أيّها الرّسُول ﷺ من أخبارِ من سبقك من الرُّسل كان لأجلِ تثبيتِ قلبكَ على الإيمانِ، والقلبُ هو الفؤادُ وإنّما يغلبُ إطلاقُ الفؤادِ على ما هو إدراكٌ وإحساسٌ ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكلّ ما أخبرناك به في هذه الآيات هو الحقُّ اليقينُ من اللهِ وفيهِ مواعظُ نافعةٌ وتذكيرٌ لكلّ مؤمنٍ، وخصَّ المؤمنين بذلك لأنّهم هم المنتفعون، ويُحتملُ أنّ "هذهِ" إشارةٌ إلى سُورةِ هودٍ لأنّ الآية في خواتيمها، وتنكيرُ "موعظة؛ وذكرى" لتفخيمِ شأنها وتعظيمِه ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ وقل أيّها الرّسُول ﷺ لمن لا يزالُ شاكًّا في رسالتِك اجتهدُوا فيما أنتُم عليهِ من الضّلالِ؛ وإنّا سنجتهدُ فيما استيقنّا به من الإسلامِ، وفي هذا تهديدٌ لهم فإنّ الرّسُول لا يأمر بالثّباتِ على الباطِل، وشبيهٌ بمعنى هذهِ الآية ما سلف في قصّةِ شُعيبٍ عليه السلام عند قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ [هود ٩٣] ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ وارتقبُوا ما سيحلُّ بكم من النّقمةِ والهلاكِ فإنّا مرتقبُون

معكم ذلك ومرتقبُون فوزنا وثوابنا عند الله، وفي هذا تهديدٌ آخر أشدّ من سابقه، ومعناه كقول المهدِّد: انتظر فسوف ترى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وعند الله علمُ كلِّ ما خفي من دقائقِ السّموات والأرض ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ وكُلّ الأمورِ تعود إليهِ وحدهُ؛ وتقديمُ الجارِ والمجرورِ "إليه" على متعلّقه "يرجعُ" فيه نُكتةُ الحصرِ، أي كلّ شيءٍ في علمه، وبيدِه الحُكم بين عبادِه في كلِّ ما اختلفُوا فيهِ؛ وفي هذا تسليةٌ لعبدِهِ مُحمّدٍ ﷺ بأنّ ربّه صاحبُ التّصرّفِ في كُلِّ شيءٍ لئلاّ يغتمّ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فأخلص العبادة لله وكن معتمدًا عليهِ وحدهُ فهو الذي يكفيكَ كُلّ أمرٍ، وبمعنى أنّ من شأنه علم الغيبِ والحُكم في كُلِّ أمرٍ هو أهل العبادةِ وعليهِ التّوكّل لا على غيرِه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وليس إلهك الذي تعبُده وتدعوهُ يخفى عليهِ شيءٌ من أمورِ العبادِ فهو يعلمُ كلّ أعمالِهم وسيُجازيهم عليها، والتّعبيرُ الذي وردَ غير مرّةٍ في هذا السّياقِ باستعمال "ربّك" فيهِ معنى الاهتمامِ بعبدِه ورعايةِ حالِه.

تمّ بحمد الله تفسيرُ سورة هودٍ عليه السلام وتليها سُورةُ يُوسف عليه السلام

تفسير سورة يُوسف عليه السلام

سورةُ يوسف مكّيّةٌ، عدد آياتها إحدى عشرةَ آيةً ومئةٌ، تُعدُّ قصة لنبيّ الله يُوسف عليه السلام في محورها العامّ؛ وقصّــةً ليعقوب عليه السلام و أبنائه في فروعها وثناياها؛ ومن هنا سُــمّيت به، وكان من أهدافِ نزولها تثبيتُ قلبِ النّبيّ ﷺ وتسليّته مما لاقاهُ هو وأصحابُه الأوائل من تهجيرٍ واضطّهادٍ وتعذيبٍ، ولقد نزلت بعد سُورةِ هودٍ التي شيّبته فكان فيها من الإيناسِ ما خفّفّ من همّه ﷺ.

تحدّثت السّورةُ عن صبا يوسف عليه السلام وهجرته دار الأبوّةِ إلى دارِ الغربةِ؛ وخروجِه من نسيمِ الحرّيةِ إلى قهرِ العبوديّةِ والسّجنِ، مبيّنةً موقفه الحديديّ مع الإغراء الجنسيّ؛ ثمّ صبرهُ في السّجن وحلمه على إخوتِه بعد أن أكرمه الله بفضلِ سلامةِ قلبه وصحّةِ عقيدتِه فصارَ سيّدًا عزيزًا، وقد قرّرت السّورةُ علم تفسيرِ الرُّؤيا، وكانت إعجازًا للعربِ في فنّ القصص وأسلوبِه.

والسّــورةُ سـلسـةٌ في تعبيرِها رقيقةٌ في أسـاليبها لطيفةٌ في قصـصـها عميقةٌ في معانيها، فيها عجائبُ الأخبارِ وروائعُ الدّروسِ؛ ضمّت قصّةَ يوسف عليه السلام في قالبٍ واحدٍ بإطنابٍ فلم تتكرّر قصّتُه في غيرِ هذه السّورةِ[٢١]؛ حتّى إنّ اسم "يُوسف" لم يرد في غيرِها إلاّ مرّتينِ بينَ سورتي غافرٍ والأنعام.

٢٦. إنزال القرآن عربيا وتضمينه أحسن القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)﴾

[٢١] للقُطب أطفيّش تعليلٌ لطيفٌ لعدم تكرير قصّة يوسف عليه السلام ونحوها كقصّة موسى عليه السلام مع الخضر والذّبيح إسماعيل وذي القرنين وأصحاب الكهف ...، قال: "لتوفّرِ الدّواعي إلى ما فيها؛ فإنّ ما هو كذلك يرسخُ في القلوبِ بلا تكريرٍ" محمّد بن يُوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، ج٧، ص٦١.

﴿الر﴾ حروفٌ من مبهماتِ القرآنِ الله أعلم بها، قيل: جعلها الله إعجازًا للفصحاءِ الذين يصوغون من أمثالِها كلامهم بأنّه يستحيلُ أن يأتوا بشيءٍ منه كبراعةِ القرآنِ وإعجازِه؛ ولذلك يردُ بعدها غالبًا ذكرُ الكتابِ ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ما أنزلنا إليك أيّها الرّسُول ﷺ هو آياتُ القرآنِ الواضح الذي يُبيّنُ حقائق الأخبارِ وعجائبها ويكشفُ عن سنن الله في خلقه، والإشارةُ تمييزٌ لآياتِ لكتابٍ تنويهًا بشرفِها، ويحتملُ معنى "المبينُ" أنّهُ بيّنٌ لذاتِه ومبيّنٌ لغيرِه أيضًا ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لقد أنزلناهُ عليك أيّها الرّسُول ﷺ كتابًا مقروءًا بلسانٍ عربيٍّ فصيحٍ لتستيقن أنتَ وقومُك أنّه كتابٌ لم ينزلهُ غيرُ الله تعالى وتسعوا لفهمِ معانيهِ وتدبُّرِها كي تنفعُكم في حياتكم.

ويُمهّدُ الله تعالى لِقصّة يوسف عليه السلام بنسبِ القصّ إلى نفسه تعريضًا بالرّدّ على الذين كانوا على عهدِ النّبيّ ﷺ وبعد عهدِه حيث أعرضُوا عن أنباءِ القرآنِ وأحيوا أباطيل القصصِ وجلبُوا أسماع النّاسِ إليها ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الله وحدهُ هو الذي يُخبرك أيّها الرّسُول ﷺ بأجملِ القصصِ بيانًا وأصدقه تفصيلاً، على أنّه أحسنُ مما هو خارج القرآن أمّا قصص القرآن فلا تفاضل بينه، و افتتاحُه الكلامَ بضميرِ العظمةِ (نحن) لشدِّ الاهتمام إلى الخبرِ الذي سيذكرُه، ووصفُ القصص مطلع القصّةِ بأنّه "أحسن القصص" تفنّنٌ وحُسنُ تسويقٍ للقصّةِ ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ وذلك من خلالِ ما نُوحيه إليك من القرآن، والقرآنُ صحّ إطلاقُه على بعضٍ وكُلٍّ، وقولُه "إليك" فيه زيادةُ تمييزٍ لشخصه ﷺ لتصويرِ امتنان الله عليه ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ وقد كُنت من قبلِ أن ينزل عليكَ القرآنُ غير عالمٍ بهذا القصص الذي سنقصّهُ عليك؛ وفي الآيةِ تقديرُ محذوفٍ أي الغافلينَ عنهُ، يقال: غفل فلانٌ عن كذا إذا لم ينتبه لأمرٍ؛ قد يسبقُ به علمٌ وقد لا يسبقُ كما هنا؛ فإنّ القصّة لم تخطر له البتّة، ولم يقل: غافلاً أي بالإفرادِ تنبيهًا لوجودِ جملةٍ من الغافلينَ عنه.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾

وتبدأُ قصّةُ يوسف عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ واذكر أيّها الرّسُول ﷺ حين جاءَ يُوسف لأبيهِ يعقوب -عليهما السّلام- يناديهِ: أبي إنّي شاهدتُ في المنامِ رؤيا عجيبة: رأيتُ من كواكبِ السّماءِ أحد عشر كوكبًا مع الشّمس العظيمةِ والقمرِ المنيرِ، وأخّر الشّمس والقمر[٢٢] لأن الكواكب رمز لإخوته ـ كما سيأتي في آخر السورة ـ وإخوتُهُ أنسب من أبويهِ

[٢٢] على أنّهما أُوّلا بأبويهِ؛ الشّمسُ أبُوه والقمرُ أمّه على الظّاهرِ وقيل العكسُ، والكواكب بإخوته.

بالسّجودِ لعظمهما ولما بدر من إخوته في حقه، وفي الآيةِ دليلٌ على قصّ الرُّؤيا والاهتمام بها؛ وإشارةٌ إلى أدبِ النّداءِ بلفظِ الأبوّةِ ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ رأيتُ أولئك جميعًا يسجدون لي، ولا يخفى أنّ سجود الكواكبِ والنّجومِ والأقمارِ لا يكونُ إلاّ لله؛ وهو غير سجودِ البشرِ؛ وإنّما رأى يوسف عليه السلام منها ما تبيّن له أنّه سجودٌ له والله أعلم كيف كان، وتكريرُ فعل الرُّؤيا تأكيدٌ وهو شائعٌ عند حكايةِ الرُّؤى. ويُجيبُ يعقوب عليه السلام ابنه مبادلاً إيّاهُ نفس الاهتمام ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ يا ولدي يُوسف: أحذّرُك من حكايةِ ما رأيت في منامك لإخوتكَ، و"الرُّؤيا" ما يُشاهدُه النّائم وأمّا "الرُّؤية" فهي النّظرُ بالعينِ وكلا اللّفظتينِ اسمٌ مؤنّثٌ فُرّق بينهما بعلامةِ التّأنيثِ، ويظهرُ أنّ يعقُوب عليه السلام قد خبِرَ حال أبنائه وأنّهم قد يحسدونه إذا قصّ لهم رُؤياهُ بسببِ ما تتضمّنُه من المنقبةِ فنهاهُ ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ لئلاّ يدبّرُوا لك أمرًا يضرّكَ، وفي "لك" تأكيدٌ لوقوعِ فعلِ الكيدِ عليهِ، وتنوينُ "كيدًا" للتّفخيم مبالغةً في التّحذيرِ، على أنّ يعقُوب عليه السلام في كُلّ ذلك لا يهوّلُ أمر إخوته عليه؛ بل خاطبه بهذا لِما علم فيهِ من حلمٍ وقوّةٍ لتقبُّل التّحذير في حُدودِه، وفي قضيّةِ إساءةِ القرابةِ تحديدًا تسليةٌ للنّبيّ ﷺ مما كان يلقاهُ من أهلِه ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تعليلٌ لطيفٌ للنّهي عن القصّ بأنّ وراء الأمرِ إبليس الذي يزرعُ الحسد والأحقاد بينَ بني الإنسانِ إذا ظهرَ شيءٌ من التّفاوتِ بينهم، فيجبُ أن يُتّقى كيدُهُ ويُجتنب، والجملةُ اعتراضيّةٌ من كلامِ يعقوب عليه السلام قالها لَمّا لمسَ من ابنه أماراتٍ تدلّ على شأنه المستقبليّ في العلمِ والحكمةِ، كما أنّ ابتداء قصّتِه بالرُّؤيا دلّ على ذلك؛ وهو ما أدركهُ يعقوبُ فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ ومثلما اختارك الله لهذه الرُّؤيا يختارُك للمكانةِ العظيمةِ؛ ولعلّ هذا من وحيِ الله ليعقُوب عليه السلام في شأنِ ابنِه، والاجتباءُ الاختيارُ والاصطفاء؛ وهو عمومٌ فصّلهُ بالتّعليمِ وإتمام النّعمةِ ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ويكرمك الله بعلمِ تفسيرِ الرُّؤيا؛ وهذا بناءً على ما شُهرَ بهِ يُوسف عليه السلام، والأحاديثُ تشملُ كلّ كلامِ الوحيِ والحكمةِ؛ وقيل: هي مفردُ حديثٍ من الحوادث أي يعلمُ تفسيرَ ما يجري على الأرضِ من وقائعٍ ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ ويبلّغك الله أنت وجميع قرابة يعقُوب ونسله من نعمةِ الوحيِ والدّينِ ما يُمكّنكم به في الأرضِ، والنّعمةُ هنا الدّين وإضافتُها لله تشريفٌ لها، وإتمامُها على يُوسف يكون بالنّبوةِ مع التّمكينِ؛ ألا ترى أنّ آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة ٣] لم تنزل إلاّ بعد رُسوخِ قدمِ الإسلامِ، أو إتمامُ النّعمةِ إعطاؤُهم أفضلها وهي الدّين ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ مثلما آتى ذلكَ لجدّيْكَ قبلكَ إبراهيم الخليل وابنه إسحاقَ، ولقد وصف الحديثُ هذا النّسب فيما جاءَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ السَّلَام"[٢٣]، وقوله "من

[٢٣] رواهُ البخاريّ، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ...﴾ الآية، رقم: ٣٣٩٠(٤/١٥١).

قبلُ" مع أنّ ذكر الآباءِ يُغني عن ذلك تصريحٌ وتأكيدٌ باتّصالِ النّعمةِ ما بينَ الحاضرِ والماضي، ولم يذكر يعقوب عليه السلام نفسه هضمًا لحقّه وتأدُّبًا مع أبويهِ على أنّ شرفهما شرفٌ له ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إنّ ربّك الذي تُؤمنُ به يا يُوسف عالمٌ بمن هو أهلٌ للنّبوة والمكانةِ؛ حكيمٌ في تدبيرِه وتصريفِ فضله بين خلقه.

٢٧. حسد إخوة يوسف لأخيهم وكيدهم له

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾

والظّاهرُ أنّ يُوسف عليه السلام التزم أمر أبيهِ فلم يقصَّ على إخوته رُؤيته؛ ومع ذلك وقع منهم ما كان يخشاهُ يعقُوب عليه السلام من الحسد؛ ويقُصُّ الله ذلك مبتدئًا بقولِه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ لقد كان في قصّةِ يوسف عليه السلام وإخوته دلائلُ على صدقِك ونبوّتكَ لمن يسألُ ويبحثُ عن خبرِهم فيجدُهُ عندكَ، أو بمعنى عبرٌ جليلةٌ لمن يسألُ عنها ليُصلحَ حاله، وخصَّ السّائلينَ والآياتُ عامّةٌ لأنّهم هم المنتفعُون، والتّعبيرُ بالسّؤالِ هنا مطلع القصّةِ مستعملٌ في كلامِ العربِ للتّشويقِ والحثِّ على طلبِ الخبر ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ فلقد تناجوا بينهم: كيفَ أنّ يُوسف وأحد إخوتِه أقربُ إلى قلبِ أبينا منّا! وفي قولِهم: "أخُوهُ" وكلُّهم إخوةٌ لأبٍ بلا شكٍّ تغليطٌ منهم وتهويلٌ للأمرِ وكأنّهم فقدُوا أبوّةً وأُخوّةً بسببِ يوسفَ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والحالُ أنّنا أولو عددٍ فنستطيع أن ننتصرَ لأنفُسنا؛ أو بمعنى نحنُ بجماعتنا أنفعُ منهما لأبينا، فلم يكونوا متّفقينَ على حسدِهِ إلاّ بعد أن حمّس بعضُهم بعضًا لذلك، والعُصبةُ الجماعةُ التي تُحيطُ بالشّيء لتحميهِ وعددُها زهاء العشرة فأكثر ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إنّ والدنا يعقُوب في خطأٍ بيّنٍ بسببِ تفضيلِهِ بين أبنائهِ في المحبّةِ، والضّلالُ هنا الخروج عن الصّوابِ كما سيأتي: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف ٣٠]، ولعلّ حُبّ يعقُوب البالغ لابنيهِ كان لصغرِهما؛ وكُلٌّ منهم قد مسّته نفحةٌ من ذلك؛ وأمّا زيادةُ حُبّه لِيُوسف لما رأى فيهِ من مخايلِ الخيرِ؛ ووجهُ غلطِهم أنّهم حاسبُوا أباهم فيما ليس له قوّةٌ على التّحكّمِ فيهِ وهو الحبّ والميل؛ والعدلُ إنّما يجبُ في المعاملةِ؛ ولو برُّوا أباهُم حقًّا لأحبُّوا من أحبَّ ولاكتسبُوا بذلك من أبيهم حُبًّا من أيسرِ طُرقِه ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أزهقُوا روح أخيكم يوسف أو هجّرُوهُ إلى أرضٍ بعيدةٍ يهلك فيها بجوعٍ أو افتراسٍ أو نحوِ ذلك؛ ففي كلا الأمرينِ نووا قتله، والطّرحُ إلقاءُ الشّيءِ مستويًا على الأرضِ؛ عُبّر

بهِ هنا مجازًا عن قوّةِ الدّفعِ والإبعادِ المفضيةِ إلى ذلك، وتنكيرُ"أرضًا" أفادَ أنّها تكونُ مجهولةً بحيثُ لا يكون لأحدٍ سبيلٌ إليها، وفي هذا بيانٌ لعبرةٍ عظيمةٍ من حالِ شقاوةِ البشرِ لَمّا يُثمرُ حسدُهم التّفكيرفي القتلِ؛ وقد سبقَ في قصّتي ابني آدم في سورةِ المائدةِ حالٌ شبيهةٌ بهذهِ ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يبقَ حبُّ أبيكم لكم وحدكم، وعبّر بالوجهِ لأنّ علاماتِ الحُبِّ والإقبالِ تظهرُعليهِ والمرادُ بقاءُ الأبِ كُلّه لهم، ولعلّ هذا التّفكير-مع فسادِه- راجعٌ إلى الطّبيعةِ الصّافيةِ للبدوِ الذينَ لم تمسسهُم ثقافةُ التّحضّرِ؛ فإنّ في الحياةِ المدنيّةِ عكس ذلك برميِ الوالدينِ وإهمالِهما ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ وبعد الفراغِ مِن أمرِ التّخلّصِ مِن يُوسف يصلُح لكم العيشُ مع أبيكم؛ أو بمعنى وَلكم أن تتوبوا إلى الله بعد التّخلّصِ منه وتكونوا أهل صلاحٍ؛ وهو أبينُ، وفيه اعترافٌ منهم بفسادِ عملِهم ففيه: قطعُ الرّحمِ وعقُوق الوالدينِ والظّلم بالقتلِ أو التّهجيرِ بلا موجبٍ والقسوةُ على من شأنُه أن يُرحم والغدرُوغيرذلك ممّا يُمكنُ أن يلاحظَ، وأيُّ إصلاحٍ قد يُحسنُه ويُتمّه من دبّر للظّلمِ؟ ولعلّ هذا الهاجس كان فيهم فقال أحدُهم[٢٤]: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ لا أُحبّذُ لكم قتل يوسف لأنّ القتل ذنبٌ وخيمٌ لا يُمحى، وأظهرَ الاسمَ ولم يقُل: لا تقتُلُوه إمعانًا في الاستعطافِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ في كُلِّ جماعةٍ من يأبى جريمةَ القتلِ أي وإن أوجبها المفسدُون فالله قد قيّض من يدفعُها حفظًا للبقاءِ الإنسانيّ، وهذا الأخُ وإن ساقَ إخوته بوعيه إلى تجنّبِ القتلِ فقد باء بمكرِ الإلقاءِ في البئرِ حينَ اقترح على إخوته قولَه: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ و أنزلوا يوسف في قاعِ البئرِ، والإلقاءُ هنا بمعنى الإنزال برفقٍ لأنّهم أجمعُوا على عدمِ قتلِه؛ وكما لَمّحَ لذلكَ الجعلُ في قوله الآتي ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾، والغياباتُ جمعُ غيابةٍ سمّي بها قعرالبئرِ لبُعدهِ وغورِه عن الأنظارِ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ تأخُذهُ إحدى قوافلِ المسافرينَ، والالتقاطُ الأخذُ للاستنفاعِ والحفظِ ومنهُ اللُّقطةُ، والسّيّارةُ جمعُ سيّارٍجُمع بالتّاءِ للمبالغةِ، وفي هذا الرّأي خبرةٌ في المكرإذ يُنفّذُ بأقربِ طُرقِه وأخفّها ويُؤتي أحسن النّتائج المرغوبةِ من إبعادٍ لا يُرجى معه التقاءٌ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إن كنتم باقين على نيّةِ التّخلّصِ منه، ويُحتملُ أنّ هذا بمعنى الحثِّ على الفعلِ أو التّأسّفِ عليه وطلبِ التّريّثِ؛ والأوّلُ أظهر؛ لأنّه لو كان ناصحًا شفُوقًا لوجّههم إلى نبذِ الجريمةِ كُلّيّةً ولفدى أخاهُ بكُلِّ حيلةٍ.

[٢٤] يقُول صاحبُ التّحريرِ والتّنوير في صددِ عدمِ ذكرِ القرآنِ لكثيرٍ من أسماءِ الأعلامِ التي لا جدوى من معرفتها: "وعادةُ القرآنِ أن لا يذكُر إلاّ اسمَ المقصُودِ من القصّةِ دُون أسماءِ الذين شملتهُم" ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢، ص٢٢٥.

٢٨. اصطحاب إخوة يوسف أخاهم والقاؤه في غيابات الجب

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾

ولَمّا اتّفق رأيُ الإخوةِ على المكرِ جاؤُوا إلى أبيهم يستعطفُونه ليُرسل معهم يُوسف عليه السلام ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ يا أبانا يعقُوب ما الذي جعلك لا تثقُ فينا حينَ نطلُبك في إرسالِ يُوسف معنا، والاستفهامُ هنا للإنكارِ، وفي محاولتهم أن يأذن الأبُ لهم في خُروجِ يوسف عليه السلام دليلٌ على ارتباطه الوثيق بابنه إلى درجةِ أنّهم لم يستطيعُوا نزعهُ منه أو هي حيلةٌ لكي يكون أثرُ المهلكةِ نشأَ بسببِ إذنِه ﴿وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ ونُؤكّدُ لك بأنّا مراعُون له الصّلاح والمنفعة، وفي هذا فاتحةُ كذبِهم التي اضطرُّوا إليها بسببِ نيّةٍ فاسدةٍ لمعصيةِ ظُلمِ أخيهم؛ فإنّ المعاصي يجرُّبعضُها بعضًا، والجملة اعتراضيةٌ لإيهامِ أنّهم مؤتمنُون ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ إئذن ليُوسف بالخُرُوج معنا غدًا إلى حيثُ نخرُجُ؛ كي يستمتع في رحلتِه ويلعب، والرّتعُ التّوسّع في الأكلِ الطّيّب اللّذيذ؛ ولعلّها حالةٌ يرغبُ فيها كلُّ خارجٍ إلى نزهةٍ أو رحلةٍ، ذكرُوها لأبيهم ترطيبًا لقلبِه بما يُوهم إسعادَ ابنِه، واللّعب اللّهو المباح أو أريدَ به تعلُّم الفنون الدّفاعيةِ كالرّميِ وما يعرفُه أهلُ الباديةِ في منتزهاتهم، وهذا المقطع من الآية يكشف سن يوسف عليه السلام و أنه لا يزال صغيرا في سن اللعب ﴿وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ونُؤكّدُ لك بأنّا منتهُون له نحفظُه من كُلّ سوءٍ؛ وفي هذا كذبٌ آخر، وأكّدُوا كلامهم في ادّعاءِ النّصحِ والحفظِ تنزيلاً لأبيهم منزلة الشّاكّ المحتاجِ إلى التّأكيدِ، وفيهما تأكيدٌ بالحرفِ والجملةِ الاسميّةِ. أجابهُم يعقُوب عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ إنّي أغتمُّ بفراقِ يوسف عليه السلام ويضيقُ صدري إذا أذنتُ له أن يذهبَ معكم، وفي هذا محاولةٌ من الوالدِ أن يصرفَ أبناءهُ عن الإلحاحِ في الطّلبِ؛ لأنّ من شأنِ الابنِ البارّ ترك ما فيه حزن أبيهِ، وأكّد كلامه إمعانًا في ذلكَ، وفي عدمِ مواجهتهم بالرّفضِ بادئ الأمرِ دليلٌ على تقديرِ أبيهم لرأيهم اعترافًا بمكانتِهم في قلبه؛ بعكسِ ما اتّهموهُ بهِ من الميلِ عنهم ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ وأخشى عليهِ من افتراسِ الذّئاب حال كونكم منشغلُين عنه وهو صغيرٌ لا يقوى على دفاعٍ؛ كما ستُبيّنُ آية: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾، والمراد في الآية جنسُ الذّئبِ ولعلَّ المكان الذي سيذهبُ إليهِ

مكانُ ذئابٍ وما شاكله من الحيوانات البرّيّةِ. أجاب الأبناءُ أباهم: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ والله إذا ما تركنا الذّئابَ تتعرّضُ لهُ حالَ كوننا جماعةً قويّةً سنكونُ من الخاسرينَ لأنّنا جميعًا إخوةٌ ونكونُ فقدنا جُزءً منّا، واللاّمُ في "لئن" موطّئةٌ لقسمٍ، وحدّثهم عن أمرينِ الحزنُ و افتراسُ الذّئبِ فأجابُوهُ عن الثّاني وسكتُوا عن حزنه لما دروا أنّه لا يُدفعُ بحالٍ و أنّهُ و اقعٌ لا محالةَ.

وهكذَا استدرجُوا أباهُم حتّى أخذُوا يُوسف عليه السلام معهم ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ وحينَ استصحبُوه معهم وكانُوا متّفقينَ أن يُنزلُوهُ في قعرِ إحدى الآبارِ المشهورةِ، وجوابُ "لَمّا" محذوفٌ لغرضِ التّهويلِ؛ تقديرُهُ فعلُوا بهِ أمرًا مهولاً، وسكتَت الآيةُ عن إذنِ يعقُوب عليه السلام وعبّرت بـ"ذهبُوا بهِ" تصويرًا لإلحاحهم الشّديدِ حتّى وكأنَّ إذن يعقُوب لم يكن معتبرًا، ونُكتةُ الإجماعِ هنا(وأجمعوا) بيانٌ لعبرةِ أنّ أهل الشّرِ يتنازلُ بعضُهم لِرأيِ بعضٍ من أجلِ تحقيقِ المكرِ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ وجاءَ وحيُ السّماءِ إلى يُوسف عليه السلام بأنّكَ ستُخبرُ إخوتك بعدَ مُدّةٍ يعلمُها الله بمكرِهم هذا، وقيل: ضميرُ"إليهِ" عائدٌ إلى يعقُوب عليه السلام ليتبيّنَ العطفُ في "وأوحينا" ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهم لا يدرُون بأنّكَ أخاهُم يُوسف لبُعدِ المكانِ وطولِ الزّمانِ وتبدّلِ الأحوالِ[٢٥]، أو لا يدرُون بأنّا أوحينا إليكَ بذلك، وفي هذا إيناسٌ عظيمٌ وتبشيرٌ بنجاتِه وتمكّنِه وتسليةٌ لقلبِه عليه السلام، وهذا على أن المخاطب يوسف عليه السلام ، وإن كان يعقوب عليه السلام ففي ذلك شيء من التطمين لقلبه ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ولمّا نفّذُوا حيلتهم في يُوسف رجعُوا إلى أبيهم وقتَ العشاءِ محاولينَ إظهارَ الأسف على ضياعه بالبكاءِ، وفعلُ "يبكون" مجازٌ عن اصطناعِ البُكاءِ وأصلُه يتباكونَ لأنّ موجب البكاءِ لم يكن لديهم، ولعلّ تعيين هذا الوقتِ إيهامٌ لأبيهم بأنّهم لم يكن لهم بُدٌّ من الرُّجوعِ إليه -وقد فقدُوا يُوسف- إلاّ ظلامُ اللّيلِ؛ ولئلاّ يطولَ حزنُه ويستسلم للنّوم؛ ولئلاّ يقرأَ ملامحَ وجوههم فيتبيّنَ كذبُهم؛ فاكتفوا بدليلٍ صوتيٍّ وهو البُكاء ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ وقالُوا لأبيهم معتذرينَ: إنّا أقبلنا على التّسابُق، والظّاهرُ أنّه رياضةُ العدوِ ويُحتملُ أنّه استباقٌ في الرّمي ونحوِ ذلك ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وتركنا خلفنا يُوسف عند حوائجنا وأمتعتنا وزادنا فتعرّض له الذّئب و افترسهُ، ومعلُومٌ أنّ افتراس الذّئبِ وحدهُ أو مع جماعتِه للبشرِ يكونُ للجزءِ لا للكلِّ ولا بُدَّ من بقاءِ شيءٍ وليس كالتقامِ الحوتِ مثلاً ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ونعلمُ أنّك لا تُصدّق ما نقُول ولو كنّا في الو اقعِ محقّينَ، ولعلّ في هذا تعريضًا هجينًا بتفضيل يُوسف عليهم وكأنّهم قالُوا قد لا تُصدّقنا لسوءِ ظنّكَ بنا. وبدلَ أن يأتُوا بما بقيَ من أشلاءِ يوسف عليه السلام لو أنّه ماتَ حقًّا جاؤُوا بقميصه؛ إلاّ أن تكون ثمّةَ حالة اختطافٍ غريبةٍ أوهموا بها أباهُم أو أنّهم دفنوا ما بقي منهُ ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ و أتوا بقميص يوسف عليه السلام وعليهِ دمٌ

[٢٥] وهذا الإنباء إشارةٌ إلى ما سيذكُرُه آخر القصّةِ من قولِه: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف ٨٩].

غيرُدمِ يوسف، ووصفته الآيةُ بالمصدرِ مبالغة في أنّه ذاتُ الكذبِ[٢٦]. ولمّا علم أبُوهم أنّ الذّئب لا يأكل كلّ يوسف مرّةً واحدةً؛ وأنّ أبناءهُ وعدُوه بحفظِه وإرسالِه للّعبِ معهم لا لحفظِ المتاعِ وهو أولى بالحفظِ؛ وأنّهم احتجُّوا له بعينِ ما تخوّفَ منه؛ ولعل الله تعالى أوحى إليه بذلك ـــ كما تقدم قبل قليل عند تفسيرقوله: "وأوحينا إليه..." فأدركَ تلاعُبهم فَأجابَهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ الحقُّ أنّ نُفوسكم زيّنت لكم شرًّا فأوقعتُموهُ عليهِ ولم يحدُث شيءٌ ممّا ذكرتُموه، ومعنى "بل" إبطالُ ما سبق وتقريرُغيرِه، ولمثلِ هذهِ الحالِ السّيّئةِ منهم ذهبَ كثيرٌمن المفسّرينَ إلى أنّهم ليسُوا أنبياءً وهو الصواب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ و إنّي على فراقِ يوسف أرجو صبرًا حسنًا لا سُخط فيهِ، وعبّربالجملةِ الاسميّةِ إثباتًا لصبرِه، وفي الآيةِ تلميحٌ إلى أنّ يعقُوب لم يقطع بموتِ ابنِه ولم يحتملهُ؛ وتنكيرُ"أمرًا" يحتملُ كُلّ ما من شأنه أن يتعرّض له المفقود والغائب ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ والله هو أهلُ الإعانةِ على تحمّلِ ما جئتُم بهِ من خبرٍمفجعٍ مُحزنٍ حينَ وصفتُم لي موت يوسف، أو هي بمعنى طلبُ الله في كشف كذبِهم، أو استعانةٌ به على تخفيفِ ما حدث لابنه، ولم تتطرّقِ الآية هنا لبيانِ سعيِ يعقُوب في معرفةِ خبرِابنه و إنّما فوّض الأمرلله لعلّ ذلك لكبرِه وفقدِه ثقةَ أقربِ من يُمكنُ أن يستعينَ بهِ.

٢٩. نجاة يوسف عليه السلام و إكرام الله له و إيتاؤه علما وحكما

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾

وبعدَ امتحانِ الله ليوسف عليه السلام بظلمةِ البئرِيأتي امتحانٌ أعظم وهو بيعُه عبداً ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ وبلُطفٍ من الله أقبل وفدٌ من المسافرينَ نحوَ البئرِالتي جُعل فيها يُوسف؛ فبعثُوا المكلّف بالاستسقاء؛ فأنزل دلوهُ في البئرِفإذا بيُوسف عليه السلام يتعلّقُ بهِ، والواردُ الذي يأتي إلى موضِع الماءِ ليستسقي وهو عكسُ الصّادرِ. وما إن رأى ر افعُ الدّلوِيوسف قال مستبشرًا: ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ يا بُشرايَ احضُري فهذا أو انُك إنّي وجدتُ غُلامًا، ونداءُ البشرى مجازٌوكنايةٌ عن سرورٍ وفرحٍ، والمقامُ هنا أقرب إلى التّعجّبِ منه إلى الاستبشارِ؛ ولعلّ ذلك راجعٌ إلى طبيعةِ ذلك الزّمنِ إذ يرون

---

[٢٦] وقد أنكر صاحبُ التّحرير والتّنويرِ ما يُشاعُ من أنّهم جاؤوا بالقميص لم يُمزّق فانكشفَ كذبُهم؛ بأنّه أمرٌ لا يخفى على جماعةٍ تُدبّرُ الشّرّ، وقال: هو من ظرائف القصص ليس إلاّ، يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢، ص٢٣٨.

البشرَ بضاعةً رابحةً ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ وقد حاولُوا كتمَ قصّةِ رفعِ يوسف من البئروأوهموا من معهم أنّهم اشتروه ليبيعُوهُ بضاعة، أو أخفوهُ بذاتِه لصغرِهِ فلم يعلم به سائرُ الجماعةِ لئلاَّ يشتركُوا في ثمنه، وهذا أقرب لسياق الآية وعودة الضمائر، وجعل بعضٌ فعل "أسرّوهُ" لإخوةِ يوسف على احتمالِ أنّهم كانوا يُتابعون خطّتهم ليضمنُوا أنّ أخاهم تلتقطُهُ السّيارةُ؛ فلمّا علموا بذلك لم يكن موقفُهم إلاَّ أن يسرُّوا بأنّه أخوهم؛ وعلى هذا يُفهم سبيلُ كتمِ السّيّارةِ لأمرِه إذ علموا بأهله واشتروهُ منهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والله ذو علمٍ واطّلاعٍ على كُلّ ما دبّرُوه وخطّطوهُ، والجملةُ اعتراضيةٌ سيقت لبيانِ أنّ ما ألمَّ بيوسف كان وفق حكمةِ الله وعلمه، ولا شكَّ أنّ يوسف عليه السلام دافع عن نفسه وشنّع عليهم استعبادهُ ولم يسكُت؛ كما سيقصّ الله موقفَ دفاعه عندَ سيّدِه وفتنةِ الإغراءِ الجنسيّ؛ ومع ذلكَ أسرُّوا أمرهُ مكرًا والله عالمٌ بهِ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ وباع السّيّارةُ يوسف الغُلامَ بثمنٍ زهيدٍ أقلَّ ممَّا يقوّمُ به مثلُهُ، والشّراءُ في الآيةِ بمعنى البيعِ فشرى معناهُ باعَ كما أنّ اشترى بمعنى ابتاعَ، و"بخسٌ" بمعنى مبخوسٌ أي ناقصٌ؛ إمّا في عددِهِ أو بركتِه لأنّه بيعٌ لحرٍّ ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وكان ثمنُه دراهم قليلةَ العددِ؛ والمعدودُ كنايةٌ عن القليل، وقيل: معدودُ دراهمهم ما دُون الموزون، وبيانُ نوع هذا البيعِ وراءهُ تصويرُ جشعِ الإنسانِ فيما ليس لهُ حقٌّ فيهِ إلى حدِّ رضاهُ بأدنى عوضٍ فيه ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ولم يكونوا يطمعون في بيعِه إلاَّ مقابلاً يسيرًا؛ لجهلهم بقيمتِه إذ ليسُوا أهل تخصّصٍ في هذهِ التّجارةِ أو لئلاَّ يتعرّض يوسف لطارئ سارعُوا إلى التّخلّصِ منه لكي لا يخسرُوا نقلهُ وإطعامه وتكاليفه، أو زُهدُهم راجعٌ إلى إطلاقِ شريفٍ مباركٍ من بينِ أيديهم بغضِّ النّظرِ إلى الثّمنِ، وتعبيرُ الآيةِ أبلغُ مما لو قال كانوا زاهدينَ، وتقدُّم "فيه" اهتمامًا بشأنِ المزهودِ فيه وللفاصلةِ.

ولمّا عُرض يوسف في مصرَ للبيعِ اشتراهُ سيّدٌ مصريٌّ وأخذهُ إلى امرأته يُوصيها ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ اعتني به ووفّري له كُلّ ما يجعلُه يُحسُّ بالكرامة بيننا، والمثوى المقام، ويُحتملُ أنّ اللاّمَ في "لامرأته" معناهُ اشتراهُ لأجلها، وفي الآيةِ تلميحٌ لطيفٌ إلى وجودِ شيءٍ من قوامةِ الرّجُل على المرأةِ في المجتمعاتِ القديمةِ التي كان لها شأنٌ وتاريخٌ؛ من جهةِ أنّه تولّى الشّراء وكان له حقُّ الأمرِ في محلِّ الإقامةِ، كما أنّ في "أكرمي" تلميحٌ آخر إلى بقايا الوصايا بالإحسانِ إلى العبيدِ عندهم ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ لعلّهُ يُقدّم لنا خدماتٍ ومنافعَ نحتاجُها أو نحسبُه ولدًا لنَا، و اتّخاذُه ولدًا يقتضي أنّهما لم يتيسّر لهما ذكرٌ أو ولدٌ مطلقًا، وفائدةُ "أو" هنا التّفريقُ بينَ إحسانِه إليهما بصفته ولداً وخدمتِه لهما عبداً، وهنا إشارةٌ مبنيةٌ على ما سبقَ بأنّ إكرامَ الخادمِ أو الابنِ قبل تكليفه سببٌ لجلبِ محبّته ليرغب في الطّاعةِ؛ أي هذا ما يراهُ بعضُ أهلِ ذلك الزّمان ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وكما أنّنا أنقذنا يُوسف من محنةِ البئرِيسّرنا له المكانة المناسبةَ للعيشِ الكريمِ بينَ النّاسِ، والأرضُ هنا ما عاشَ فيهِ، أو معنى الآيةِ وتمكينُنا ليوسف هو التّمكين ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

وليكون المكانُ الذي سُقناهُ إليهِ مهدًا يظهرُ فيهِ بما علّمناهُ من تفسيرِ الرُّؤيا فينفع النّاس؛ وتأويلُ الأحاديث أشملُ كما سبقَ في السّورةِ، ومعنى الآيةِ العامّ رفعناهُ من محنةِ الجبِّ لنُمكّنه ومكّنّاهُ لنُعلّمه ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ والله هو القويُّ القادرعلى تنفيذِ كُلِّ أمرٍ ولا يُعجزُه شيءٌ، ومعنى "غالب" أنّ كُلّ حالٍ خالفت أمرَ الله فصورتُها كنزاعٍ مع الله والله غالبٌ فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ غيرَ أنّ أكثر النّاسِ يجهلُون قدر الله فلا يدعونه ولا يعبدونه ولا ينزّهونه فيُفوّتون على أنفسهم خيرًا عظيمًا ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وحينَ بلغَ يوسف عليه السلام تمام قوّته ونضجه منحه الله فتوحًا من الحكمةِ وفيضًا من العلمِ، وفي هذا إشارةٌ إلى اصطفائه للنّبوةِ وتلقّي الوحيِ، والأشدُّ القوّةُ واختلف في تحديدِ سنِّ إدراكه ما بينَ البلوغِ والأربعينَ وقيل أكثر، وذكر بعض العلماء :أنه لم يقل واستوى في حق يوسف بينما قال في موسى واستوى؛ لأن موسى بلغ الأربعين ولم يبلغها يوسف حينئذ ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ومثل تفضّلنا على يُوسف بالحكمةِ والعلمِ نُثيبُ كُلّ محسنٍ مُخلصٍ؛ ولعلّ في هذا تبشيرًا وتسليةً لمحمّدٍ ﷺ، وفي ذكرِ المحسنين تنويهٌ بأنّ تفضّل الله على يوسف كان بسببِ إحسانه و أنّه قد عرفَ كيف يُقابلُ فضلَ سيّدِه عليهِ، وفي الآية ما يدل على أن إتيان العلم الشرعي مرتبط بالإحسان.

٣٠. مراودة امرأة العزيز يوسف عليه السلام وصرف السوء عنه

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾

وبعد فتنةِ البئرِ والاستعبادِ يقصُّ الله علينا موقف يوسف عليه السلام مع فتنةِ الإغراءِ الجنسيّ ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ طلبت امرأةُ العزيزِ من يوسف الذي يُقيم في بيتها أن يُضاجعها، وأصلُ المراودةِ الطّلبُ برفقٍ؛ وصيغةُ المفاعلةِ أفادت تجدّد الفعلِ؛ والمراودةُ عن النّفسِ دعوةٌ إلى أن يتخلّى عن نفسه لها، وإضافةُ البيتِ لها مجازٌ لأنّها أولى بهِ لطولِ إقامتِها فيه، وفي هذهِ الحادثةِ يُبيّنُ الله أنّ كلّ دواعي الفاحشةِ توفّرت غير أنّ يوسف امتنع؛ أوّلها كونه شابًّا في بيتِ المرأةِ؛ و ابتداؤُها له بالطّلبِ إذ الشّابُّ أميلُ للّتي تميلُ إليهِ ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ وأحكمتِ المرأةُ غلقَ أبوابِ البيتِ، وفي "غلّقت" مبالغةٌ

في الإغلاقِ لكثرة الأقفالِ أو الأبواب، وهذا أفادَ أنّها قصدت كلّ بابٍ من شأنِه أن يوصلَ إلى الغرفةِ ولو كان منسيًا، وكثرةُ الأبوابِ دليلٌ على اتّساعِ البيتِ فهو تأمينٌ للشّابِّ بأنّه لا يُكشفُ أمرُه لبُعدِه عن الخارِج ولبُعدِ الخارجِ عنه، وعبّر بالمفردِ في ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ تنبيهًا إلى أنّه المعلوم في مكانِ الفاحشةِ ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ودعت المرأةُ يوسف إلى الفاحشةِ بصريحِ العبارةِ، وهيت اسمُ فعلِ أمرٍ بمعنى تعالَ و أقبل؛ أو اسمُ فعلٍ ماضٍ بمعنى تهيّأتُ لكَ، وقيل: تضمّن السّياقُ معنى أسرع لا تتأخّر، والدّعوةُ بوضوحٍ وتصريحٍ فيها دافعٌ أقوى إلى الفاحشةِ ممّا لو كان إيماءً وتلميحًا. وبدليلِ جوابِ يوسف عليه السلام لها نحسبُ أنّ المرأةَ كانت جادّةً حريصةً غير مختبرة فلم يحتج يوسف لأن يتثبّت عمّا تُريدُه منهُ؛ فرفضَ طلبها مباشرةً بقولِه: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أستعيذُ بالله مما تطلبينني إليهِ فهو فعلٌ قبيحٌ، ومن هذا نفهمُ أنّ أوّل عاصمٍ ليوسف عليه السلام من الفاحشةِ وجودُ خشيةِ الله في قلبه ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ إنّ سيّدي الذي اشتراني قد أحسنَ إليَّ في إقامتي بينكما فكيفَ أخونُه، ذكّرها بفضلِ زوجها ومكانته لعلّها ترعوي حفظًا لهُ، والمثوى مكان الإقامة، ورجّحَ بعضٌ أنّه يريدُ بالرّبِّ إلهه الله إذ مثل يوسف عليه السلام أرفعُ من يقول في سيّدِه "ربّي". ولئلاّ تتوهّمَ أنّ المانع له من الإقدام اعتبارٌ دنيويٌّ أخلاقيٌّ فقط قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إنّ الذينَ تلبّسوا بالمعاصي لا يفوزون بثوابِ الله أبدًا وعاقبتُهم وعيدٌ وخسارةٌ، وهذهِ الكلماتُ الوجيزةُ ذات الدّلالاتِ العميقةِ نحسبُها سلاح دفاعٍ لا يظفرُبهِ إلاّ أولو قدمٍ راسخٍ في الإيمانِ، وفي هذا ردٌّ لمن توهّم أنّ امرأةَ العزيز ظنّت أنّه من حقّها الاستمتاع بالعبدِ كما يستمتعُ السّادةُ بالإماءِ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ولم تأبه المرأةُ بكلامه ونوّعت في كُلِّ حيلِ الإغراءِ وعوّلت جاهدةً أن توقعه في الفاحشةِ، وفي هذا عاملٌ إضافيٌّ وهو الجبرُمع الإغراءِ، والوقفُ هنا حسنٌ؛ فالتّعبيرُوردَ على سبيلِ المشاكلةِ اللّفظُ واحدٌ (هَمَّ) والمعنى مختلفٌ، والهمُّ العزمُ الشّديد على فعلِ شيءٍ؛ وأكّدهُ بقد ولام القسم في المرأةِ لتحقّقِه منها؛ ويأتي بمعنى الخواطروالهواجس العابرة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ فيُوسف أراد أن يبطش بها ليصدها عن نفسه، لما رأى عزمها على الفاحشة، لكنّ صدّهُ اللهُ عن ذلك صيانة له حتى لا يقال اعتدى على امرأة، وحتى لا تستغلها امرأة العزيز حجة لإيقاع الأذى بيوسف عليه السلام، هذا هو الرأي المناسب لمنزلة الأنبياء، ويتناسب أيضا مع ما وصف الله به يوسف في الآية السابقة من أنّ الله آتاه الحكمة والعلم وجعله من المحسنين، ويناسب أيضا مسارعة يوسف إلى الاستعاذة بالله عندما صرحت له بمرادها، وعَدَّ ذلك من الظلم، وما سيصفه الله به لاحقا به بأنه من عباده المخلصين، ومن المفسرين من شبه حال يوسف في همه بحالِ الصّائم العطشان يرى الماءَ أمامه ويأتيه هاجس الشّربِ منه فيمتنع لحرمةِ اليومِ، ثمّ إنّ همّ المرأةِ لم يتعلّق بهِ شيءٌ أمّا همّ يُوسف فأتبعه بقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وجوابُ "لولا" محذوفٌ تقديرُه لوقعَ فيما هم به من البطش بها، ورأى بعضٌ المفسرين أنّ الهمّ لم يقع من أصله؛ إذ أفادت "لولاَ" امتناع همِّه برؤيته للبرهانِ؛ كقولكَ سقطتَ لولا أنّي أمسكتُك،

فالسقوط لم يقع من أصله، والبُرهانُ حجّةٌ عقليّةٌ معنويّةٌ أو حسّيةٌ ظاهرةٌ أراه الله إياها؛ لأنّه نبيٌّ، وقد اختلف فيها المفسرون، ولا دليل يجزم بتعينها فالله أعلمُ بها ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ ومثل إكرامنا ليوسف بالمكانةِ الشّريفةِ نُبعدُ عنه المعاصي والدّو افع إليها، ولعلّ السّوء هنا ما كان من مقدّماتِ الزّنا والفحشاءُ الزّنا؛ و إنّنا نجدُ لفظَ السّوءِ والفحشاءِ أوسع استعمالاً، وجعلَ المصروفَ السّوءَ والفحشاءَ ولم يقل لنصرف يوسف عنهما بيانًا بأنّه لم يقع فيهما ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ إنّ يُوسف من عباد الله الذينَ اختارَهم لكي يُعصموا من الانحرافِ لما علم من صفاء قلوبهم، وفي استعاذةِ يوسف بالله؛ ثمّ فرارِه نحوَ البابِ؛ ثمّ اختياره السّجن على الفاحشةِ وعدمِ قبوله الخروج منه حتّى يُبرّأَ؛ ثمّ استغاثته بالله لينجيهُ من كيدِ النّساء؛ ثمّ ثناء الله عليهِ في مواضع شتّى من السّورةِ؛ ثمّ شهادة الشّاهد من أهلها؛ ثمّ اعترافِ امرأةِ العزيزِ باستعصامِه وكذا اعتر افها بأنّها هي من راودتهُ؛ وغيرُهذا دليلٌ قاطعٌ على أنّ يوسف لم يدنُ من الفاحشةِ البتّة؛ وما ادّعاهُ بعضٌ من أنّهُ أقدمَ ثمَّ أحجمَ وَهْمٌ منهم غذّتهُ الإسر ائيليّاتُ تولّدَ من جهلِهم مكانة النّبيّ وسوءِ تأويلِهم معنى "همَّ بها"[٢٧].

وتستمرُّساعةُ محنةِ الإغراءِ الجنسيّ وتتطوّرُإلى ملاحقةٍ ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ ولمّا عجزَيوسف عليه السلام من ردّ المرأةِ بإقناعه اللّفظيّ؛ ورأى منها إصرارًا متضاعفًا على تلطيخِ صفحته؛ عزمَ أن يفرَّمن بينِ يديها؛ ولحقت المرأةُ وراءهُ تجذبُهُ يُريدُ الهرب وتُصرُّعلى الطّلب، والآيةُ من بديعِ الإيجازِالقر آنيّ؛ فعلى قلّةِ ألفاظِها ضمّت معاني كثيرةً، وفيها تربيةٌ على وجوبِ هجرانِ ساحةِ الرّذيلةِ لضمانِ عدمِ الوقوعِ فيها؛ ثمّ لفتةٌ إلى وجوبِ عصيانِ من تعيّنت طاعتُه إذا كانت في معصيةِ الله ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ وجذبت قميصَ يوسفَ من خلفٍ حتّى تأثّربالجذبِ فتقطّع، وهذا لا يكونُ إلاّ حالَ الاستباقِ وإلاّ لم يصحَّ دليلاً على براءةِ يوسف، والقدُّ الشّقُ؛ وقيل يردُ أكثرعلى الشّقِّ طولاً أمّا عرضًا فهو القطُّ ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ ووجدَ يوسف والمرأةُ ربَّ البيتِ وراءَ البابِ، وألفى بمعنى وجدَ من غيرِحُسبانٍ، والأنسب أنّ حضورالسّيّد كان في غيرِأو انه، فلم يكن فرارُيوسف لتوقّع مجيئه؛ ولم يكن مستسلمًا لدعاوى الإغراءِ يتلذّذُ بها مع الامتناعِ؛ بل كانت لحظاتٍ سريعةً، والظّاهرُأن يقول: ألفيا سيّدهُ؛ وجعلهُ سيّدَها لأنّه يقصدُ الزّوجيّة اعتبارًا للمتعارفِ عندهُم أنّ الزّوج سيّدٌ أولكونِها بالخوفِ من زوجِها في هذا الموقفِ كانت أحطّ مكانةً من يوسف في نظرتهم له على أنه عبد. وهكذا تنقلبُ الموازينُ حين قالت المرأةُ لزوجها مباشرةً من غيرِتأخّرٍلئلاّ تُكشف: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أليس من تعدّى على حُرماتِ امر أتك يستحقُّ سجنًا يُحبس فيهِ أو ينالُ عقوبةً شديدةً؟ وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ عقوبة الزّاني أمرٌمعروفٌ في المجتمعاتِ القديمةِ وليسَت عقوبتُه ببدعٍ في

[٢٧] ذكر هذا التّدقيق مُحمّد علي الصّابوني في تفسيرِه للآياتِ، ينظر: الصابوني، صفوة التفاسير، ج٢، ص٤٣.

الإسلام؛ فضلاً على أنّ الإجرام لم يتحقّق هنا بعدُ، ولم تذكُر المرأةُ يوسف باسمه لئلاَّ تُحرّكَ عواطفَ زوجها الذي يعلمُ عفّته، وبدأت بالسّجنِ لعلَّ أثرَ الحبِّ الباقي في قلبها له يكرهُ الإيلام والتّعذيبَ، وفي ذكرِ خيارينِ على التّرقيّ ما يبعدُ أشدَّ منهما كالقتلِ مثلاً ويجعلُ المخاطبَ أمام صيغةٍ كأنّها قانونٌ محكومٌ به. ردَّ يوسف مدافعًا عن نفسه ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ هي التي دعتني إلى الفاحشةِ وغلّقتِ الأبواب وطلبتني في إسلامِ حالي لها، وفي تعبيرِه بلفظِ الغيبةِ بدلَ أنتِ أو هذهِ ما يُصوّرُ استحياءً وأدبًا ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وتتوسّعُ قضيّةُ الفاحشةِ ويتدخّلُ شاهدٌ من أهلِ امرأةِ العزيزِ، وكونُه من أهلها لا طرفًا خارجيًا أقوى حُجّةً و أثبت، ولعلّ الشّاهد هنا بمعنى الحاكم فهو لم يلاحظ شيئًا. ويُدلي الشّاهدُ بما يلي: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ إن وُجدَ قميصُ يوسف قد شُقَّ من أمامٍ فالمرأةُ صادقةٌ فيما ادّعت ويوسف كاذبٌ فيما ردَّ بهِ، إذ سيكون هو لحق خلفها فبادرت إلى ردّهِ جنبًا أو نحوَ ذلكَ فقدّت قميصهُ من قُبلٍ. وإن كان العكس: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأن وُجدَ قميص يوسف مقطّعًا من خلفٍ فهي كاذبةٌ فيما اتّهمته به وصدَق هو فيما ردَّ بهِ، لأنّهُ يكونُ هربَ منها وجذبته قبل أن يصل إلى البابِ لئلاَّ يخرُج قبلها معلنًا الفضيحة، وبينَ لفظتي الكذبِ والصّدقِ المتجدّدةِ في الآياتِ طباق وهو محسّنٌ لفظيٌّ، ولا يُمكنُ للشّاهدِ أن يعلم هذا لولا سبقُ إخبارِله بشيءٍ من تفاصيل القصّةِ فبنى كلامه عليه؛ ولعلّهُ جاء يشهدُ لَها فوقع عكسَ ما أراد كرامةً ليُوسف ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ وحينَ وجدَ الزّوجُ أنّ قميصَ يوسف عليه السلام قد تقطّع من خلفٍ؛ قال لامرأته: إنّ هذه الملاعبة من جملةِ ما تُعرفُ بهِ النّساءُ من الحيلِ والمراوغاتِ حال الشّدائد؛ ولعلّهُ لهذا لم يتفاجأ كثيرًا وكان ليّنًا مع القضيّةِ ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ مكرُكنّ بغيركنّ أعظمُ من أن يُدرك أو يردُّ؛ وهذا تأكيدٌ لما قبلهُ؛ فهو مكرٌ ليوسف من حيثُ التّهمة وللزّوجِ من حيثُ الخيانة. ثمّ يخاطبُ الزّوجُ يوسف يأمرُه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ابتعد عن الحديثِ في هذا الشّأن، وذكرُ الاسمِ هنا تلطّفٌ، وفي معالجةِ السّيّدِ لهذهِ البليّةِ العظيمةِ حنكةٌ لا تخفى؛ إذ أخذ بالموقف العدل ولم يمل إلى زوجِه بل عاتبها؛ ثمّ أمرَ من حقُّه أن يدافع عن نفسه أن يسكت لأنّه في موقف ضعفٍ؛ والقضيّةُ تحتاجُ محاكمةً أوسع ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ واطلبي العفوَ ممن شأنه أن يعفُو عنكِ فأنتِ مخطئةٌ في حقّه أي يعني نفسه، وكذَا مخطئة في اتّهامِ الأبرياء، أو هو استغفار الله إذ لعلّهُم يؤمنون به مع الشّركِ؛ وفي السّورةِ قولُ النّسوةِ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾، وقوله للأنثى "كُنتِ من الخاطئينَ" من بابِ تغليبِ الذّكورِ؛ وهو أبلغ من كُنت خاطئةً، وهذا الموقف من السّيّدِ قد يُفهم لينًا وإعذارًا لشُبهةِ مملوكيّةِ يوسف وحسنِه أو يفهم على أنه استهانة وميوعة.

٣١. انتشار الخبر بين نسوة المدينة وكيد امرأة العزيز لهنّ

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)﴾

وتناقلت ألسنةُ النّاسِ خبر امرأةِ العزيزِ مع يوسف عليه السلام؛ ويقصُّ القرآنُ طرفًا ممّا حدث ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قالت جماعةٌ من النّسوةِ من نفسِ المدينةِ التي وقعَ فيها حدثُ يوسف عليه السلام مع المرأةِ، والظّاهرُ أنّهنّ نسوةٌ معلوماتٌ بدليلِ أنّ امرأةَ العزيزِ دعتهنّ بعدَ ذلك؛ وأنّهنّ خليلاتٌ لها بدليلِ الضّيافةِ وبسطِ الكلامِ في أمورٍ خاصّةٍ ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ امرأةُ عزيزِ مصرَ تطلُب خادمها يوسف أن يمكّنها من نفسه لتستمتع به، وإضافتُها لزوجها المشهورِ فيه نكتةُ الذّمّ والتّشنيع، والتّعبيرُ بالمضارعِ في "تراودُ" لإفادةِ التّجدّدِ ولاستحضارِ تلك الحالِ العجيبةِ، والفتى هنا كنايةٌ عن المملوكِ؛ وإضافتُه إليها مجازٌ لأنّها تتقاسم ما يملكُه زوجُها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ مثلُ امرأةِ العزيزِ لا تصلُ إلى مراودةِ فتاها إلاّ أن يكون محبُوبًا إليها حبًّا تغلغلَ في قلبها، والشِّغافُ غلافُ القلبِ أو لُبّه؛ وكأنّه تمكّن فيهِ واحتواهُ فمنع غيره، والفعلُ (شَغَفَه) مثل الفعلُ (كَبِدَهُ) و(وَرَآهُ) إذا أصابَ كَبِدَهُ أو رئتَهُ أي أصابَ حُبّه شغافها ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إنا لنحسبُها خاطئةً فيما فعلته خطأً واضحًا لا شكَّ فيه، وإلى هنا تمّ كلام النّسوةِ؛ وجاءَ بالتّأكيدِ تحقيقًا لرُؤيتهنّ ودفعِ توهّم أنّه حسدٌ لها، ونقلُ القرآنِ لهذهِ الصّورةِ فيهِ تلميحٌ إلى طبيعة النّساءِ الفضوليّةِ إذا التقينَ في تتبّع قضايا النّاسِ وإصدارِ الأحكامِ تجاهها ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ وحينَ علمتِ امرأةُ العزيزِ بما جرى من حديثٍ بين النّسوةِ في قضيّتها بعثت إليهنَّ من يدعوهنَّ إليها، وسمّيَ مكرًا لأنّه كلامُ سوءٍ في خفاءٍ؛ أو حُكمٌ فيما ليس لهنَّ به علمٌ، وبما أنّهنّ لم يعلمن سببَ الدّعوةِ كانت دعوةُ امرأةِ العزيزِ لهنَّ تدبيرٌ لمكرٍ بالمثلِ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ وهيّأت لهنَّ مكانًا مريحًا، ويُحتملُ أرادَ بالمتّكأِ الطّعام؛ تقُول العرب اتّكأ زيدٌ عند فلانٍ إذا أكل عندهُ؛ وهذا على عادةِ أهلِ التّرفِ، ولا يلزمُ من الاتّكاءِ الميلُ إلى جانبٍ بل هو مطلقُ القعودِ المريحِ ﴿وَ آتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وقدّمت لهنَّ إكرامًا؛ وهذا مناسب لدعوتهنّ؛ وأعطت كلَّ واحدةٍ من النّسوةِ سكّينًا خاصًا؛ وفي الآيةِ تقديرُ محذوفٍ أي قدّمت ما يُقطّعُ بالسّكّينِ كلحمٍ أو فاكهةٍ؛ وهي كنايةٌ عن وليمةٍ راقيةٍ في مكانٍ فاخرٍ واسعٍ تمهيدًا لعرضِ جمالِ يوسف عليهنّ ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وأمرت امرأةُ العزيزِ يوسف بأن يخرج من مكانه الذي تهيّأ فيهِ إلى قاعتهنّ التي جلسنَ فيها، وهذا المشهدُ لا شكّ أنّه تمّ في حيلةٍ من

المرأةِ فلا يُوسف علم به ولا النّسوةُ دربنَه، ولا بُدّ أنّها أمرت يوسف بترتيبِ مظهرِه، ويكونُ خروجه عليهنّ مفاجأةً حال وصولهنّ إلى تقطيعِ ما قدّم للأكلِ ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ولمّا رأتِ النّسوةُ يوسف على جمالِه انبهرت أعينُهنّ بهِ وذهبَ تركيزُهنّ فيه فوصلَت السّكاكينُ إلى أيديهنّ غفلةً من شدّةِ الانبهارِ، و"أكبرنهُ" من الإكبارِ أي الإجلال، والتّقطيعُ هنا استعارةٌ عن الجرح؛ والتّشديدُ فيه للمبالغةِ في أنّه جرحٌ عظيمٌ أو أنّه في أيدٍ كثيرةٍ، ولعلّ من تمام مكرِ امرأةِ العزيزِ أن جلبت سكاكين حادّة جدًّا فوقَ ما يلزمُ، ولا يخفى أنّ دخول البالغ عليهنّ الذي أحدثَ إعجابًا كان -لو استحينَ- يُسبّبُ هلعًا واضطرابًا ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ وقالتِ النّسوةُ لا يكونُ هذا المخلوق من جنسِ البشرِ، وتركيبُ "حاشَ لله" جرى في كلامِ العربِ مجرى المثلِ في إبطالِ أمرٍ عن شيءٍ مَا؛ ولا شكَّ أنّه لم يَرِد على حقيقتِه من أنّهنّ نزّهنَ الله وقدّسْنَهُ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ليسَ هذا في الحقيقةِ إلاّ من جنسِ الملائكةِ الكرامِ، ولا نعتقدُ أنّ النّسوةَ رأين الملائكة كي يحكمنَ بأنّ يوسف اقتبس جماله منها؛ وإنّما ذلك على الظّاهرِ المشاعِ من أنّ الملائكة ذوو حسنٍ كما أنّ الشّياطينَ ذوو سوءٍ. وقالت امرأةُ العزيزِ للنّسوةِ حين استحكم منهنّ الانبهارُ: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ هذا هو الفتى الذي عاتبتُنّني في حُبّي له ومراودتي إيّاهُ، أو الإشارةُ إلى الحُبّ، وإشارةُ البعدِ مع أنّ المقصود قريب فيهِ نكتةُ التّعظيم ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ ولقد طلبتُ منه جاهدةً أن يُمكّنني من نفسه فأبى إباءً شديدًا، والاستعصامُ من عصمَ مبالغة في الامتناع؛ أي عصمَ نفسهُ من خطيئةِ المراودةِ. وتخويفًا له قالت في حضرته: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ والله إذا ما غدا يعصيني فيما أطلُب منه، وذكرت مطلقَ الأمرِ لعلّه لاقت من يوسف عصيانًا في موقفٍ أُخرى ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ لأحكمّن عليهِ بالسّجن يكون فيهِ ذليلاً حقيرًا، وأُكّد الفعل الأوّل بالنّونِ الثّقيلةِ لأنّه متحقّقٌ معلومٌ وخُفّف الثّاني لأنّه نسبيٌّ وناتجٌ عن سابقه، وقولُ "من الصّاغرينَ" أبلغُ مما لو قيل: صاغرًا، والمتأمّل يجدُ أنّ العفو عن مستحقّ العقوبةِ يزيدُه تبجّحًا بخطئهِ؛ فالمرأةُ كانت تحاولُ إخفاء أمرِها ثمَّ صارَت تجاهرُ به، وبالمقابل قد يتضرّرُ الطّرفُ الذي وقع عليهِ الخطأ أكثر بمراجعةِ المتعدّي له.

٣٢. تفضيل يوسف عليه السلام السجن على الفاحشة، ودخول فتيين معه

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾

وبعد محنةِ البئرِ ثمّ الاستعبادِ ثمّ الإغراءِ الجنسيّ يستقبلُ يوسف عليه السلام محنةَ السّجنِ، وقد ناجى ربّهُ بعد توعّدِ امرأةِ العزيزِ لهُ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يا ربّي أُشهدُك أنّي أُحبّذُ دُخول السّجنِ ولا أرجو الوقوع في ما دعتني النّسوةُ إليهِ من الرّذيلةِ، وفعلُ "يدعونَ" مثل: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ [البقرة ٢٣٧] نونُه نون النّسوة، وإسنادُه الفعل إليهنّ فيه دليلٌ على أنّهنّ شاركن في إغرائه تلميحًا أو تصريحًا بأن يطيعَ مولاته، ولم يرغب يوسف بصراحةٍ في شقاءِ السّجنِ وإنّما أعلن لمّا وقع بينَ خيارينِ أسلمهما لأمرِ آخرته ودُنياهُ؛ وإعلانه إن كان سرًّا فهو مناجاةٌ لله تمهيدًا للدُّعاءِ، وإن جهر به ففيه غلقُ طمعِ امرأةِ العزيزِ فيه ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ وإن لم تُبعد يا الله عنّي مكرهنَّ بالإغراءِ سأميلُ إليهنّ لا محالةَ إذ دوافعُ الميلِ مخلوقةٌ فيَّ، وصبا إلى الشّيء مال إليه، ولعلّ نُكتة التّوسل هنا بالخصوص أنّ النّفس تكون إلى الشّيءِ أميل إذا اشتدّت الدّعوة له وكثُر الدّاعون إليهِ، ولم يقل أصبُ إليها أي امرأة العزيز تنويهًا بأنّ القدمَ الأولى في المعصيةِ يجرُّ إلى التّوغّل إلى إعادتها وتنويعها ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وأصيرُ بسببِ سقوطي في المعصيةِ جاهلاً؛ والجهلُ هنا بمعنى السّفهِ والضّياعِ عن الرّشدِ، أو هو تنزيلٌ للعالم بحرمةِ المعصيةِ منزلة الجاهل لأنّه لم يعمل بما عمل؛ وإن كان غير معذورٍ في الحالينِ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ ولقد سمع الله مناجاة نبيّه يوسف عليه السلام فاستجابَ لهُ فأبعد عنه كلّ ما يسوءُهُ منهنّ، وعبّر بفاءِ التّعقيب تبيينًا لسرعةِ الإجابة مع أنّ صيغة "استفعل" أفادت مبالغةً في تحقّق الفعل، وفي "ربّه" معنى اللّطيف بهِ الرّحيم لضعفه، وللدّعاءِ مواضع يتعيّنُ فيها منها هذا؛ أي طلبُ الله الإعانة على صرفِ المعصيةِ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إنّ ربّكم أيّها النّاسُ سميعٌ لكم جميعًا إذا دعوتُموهُ؛ عليمٌ بنواياكم وحوائجكم فلا تستنكفُوا أن تدعوهُ كما دعاهُ يوسف عليه السلام، واسمُ الله "السّميع" يكثرُ وروده متضمّنًا معنى المجيبِ كما هنا؛ بخلافِ ما لو ورد في سياق الوعيدِ مثلاً.

وهنا تبدأُ محنةُ السّجنِ وهي آخر محنةٍ وأصعبُها ليوسف عليه السلام توردها السّورة؛ لطولها وما لقي فيها من عنتِ العزلةِ والإبعادِ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ وظهر لآلِ بيتِ العزيزِ بعد تطوّرِ أوضاعِ قضيّةِ يوسف عليه السلام أن يُسجن إلى مدّةٍ غيرِ محدّدةٍ، وقوله "ليسجننّه" جواب قسم محذوف، و"الآياتُ" هنا أماراتُ صدقِ يوسف وكذبِ امرأةِ العزيز، والآية سيقت على سبيلِ التّعجيبِ من حالِهم كيف يحكمون بذلك من بعد تبيّنِ الدّلائل متشرّبةً معنى التّوبيخ، ولعلّ امرأةَ العزيزِ أرادت تغطيةَ قضيّتها نهائيًا بسجنِ يوسف تغليطًا للرّأيِ العامّ وخاصّةً بعد مشاهدةِ النّسوةِ لاستعصامِه ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ وكان من لُطفِ تقديرِ الله أن جمعَ بهِ في السّجنِ شابّين، و"معه" أفادت اقترابًا في زمنِ الدّخولِ أو مطابقةً له وكأنّ الله أبدله بسيّدِه وسيّدته رفيقينِ أحسن وأوفق له، وكونُهم للثّلاثةِ شبابٌ تنويهٌ بأثرِ هذهِ المرحلةِ في تطوّرِ تصرّفاتِ الفردِ؛ إلاّ أنّ استيقاننا بصلاحِ يوسف نبّهنا إلى

أمرٍ ذي صلةٍ بأنّ دخول السّجنِ ليس جُرمًا بذاته. وبعد مكوثٍ في السّجنِ رأى كلا الفتيين رُؤيا قصّها على يُوسف: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ إنّي رأيت في المنامِ حلمًا؛ رأيتُ نفسي أصنعُ خمرًا، والذي يعصرُهُ عنبٌ أو تمرٌ و إنّما عبّر بالخمرِ مجازًا باعتبارِ ما سيكون، ووردَ في بعضِ لغاتِ العرب إطلاق اسم الخمر على العنب ولو قبل تحوّله. وأمّا رُؤيا الثّاني: ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ رأيتُ فيما يرى النّائم أنّني أحملُ فوق رأسي خُبزًا والطّيرُ تأكل من ذلك الخبز، واهتمام القرآنِ بوقائع تاريخيّةٍ قديمةٍ في جانبِ الرُّؤى دليلٌ على وجودِ علمٍ فيها قائمٍ، ويُحتملُ أنّه علمٌ حظي باهتمام كثيرٍ من عُلماءِ زمانه واشتهر؛ كما اشتُهر عهدُ موسى عليه السلام بالسّحرِ وعهدُ عيسى عليه السلام بالطّبّ ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أخبرنا بتفسيرِ هذهِ الرُّؤيا إنّنا نحسبُكَ ممّن يُجيدُ تفسيرَ الرُّؤيا، أو بمعنى نراكَ محسنًا إلى النّاسِ بالخيرِ أي توسّموا في صلاحه التّفسير الصّحيح، ولعلّ تطلّعهما الشّديد لتفسيرِ ما رأياهُ راجع إلى طبيعةِ السّجنِ إذ حُرما جميع طرقِ الاتّصالِ بالعالم الخارجيّ؛ وتاقت نفوسهما إلى سماعِ أيّ نبأٍ يبشّر بالخلاص.

٣٣. الدعوة إلى الله تعالى في غياهب السجن

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

وقبل أن يُجيب يوسف عليه السلام الفتيين إلى تفسيرِ ما رأياهُ اغتنمَ فرصة انصرافهما إليه بكاملِ سمعهما لفهمِ رُؤياهُما العجيبةِ ليقُول: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ لا يقدّم لكم خدّام السّجنِ طعامًا إلاّ أخبرتُكم بهِ؛ ما هو؟ وكم كمّيّتُه؟ وما نوعُه؟ وكيف يأتي؟ ونحو ذلك قبل أن يأتي إليكما الطّعامُ أو تأويلُ الطّعام[٢٨]، وعبّر بالمضارع في أكثر من فعلٍ لإفادةِ التّجدّد أي هو إخبارٌ قائمٌ وليس صدفة عابرةً، وفي وصفه الطّعام بالرّزقِ تلقينٌ لهم بأن يسألُوا عمّن يرزُقُهم؛ فيعرفُوا بأنّه الله ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ ذلك الإخبار بالغيبِ ليس من قوّتي ولا حيلتي و إنّما هو علمٌ

[٢٨] و سلك ابن عاشُور في تفسيرِ الآيةِ خلافًا للجمهورِ معنى: لا يأتي عليكم وقت الطّعام إلاّ وأكون قد أعلمتُكما بتفسيرِ ما رأيتُما؛ باعتبارِ أنّ السّجناء يوقّتون لأمورِهم بمثلِ هذهِ الأحداثِ المتكرّرةِ إذ عدموا غيرها. يُنظرُ: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢، ص٢٧٠.

ربّانيٌّ أكرمني الله به من جملةِ عُلومٍ أخرى كالشّريعةِ والاقتصادِ، كما أكرم الله بذلك عيسى عليه السلام فقال لقومه: ﴿وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ [آل عمران ٤٩]، وهكذا يكونُ يوسف عليه السلام دعاهما إلى الإيمان بالتّلويحِ إلى عظمةِ الله؛ ثمَّ قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ إنّي هجرتُ طريقَ الكافرينَ باللهِ والجاحدينَ للبعثِ والحساب، والتّركُ عدم الأخذ بالشّيءِ مع إمكانِه وليس أخذًا ثمّ إعفاءً كما قد يتبادرُ، ونكّر القوم وهم قومه بالأولى ابتعادًا عن الذّمِ الموجّهِ وليعمّ النّاس بصفاتِهم لا بأسمائهم، وهذا الإخبار تعليلٌ لسببِ إكرامه بالنّبوءةِ؛ أو تعريضٌ بدعوتهما أي إنّي تركتُ فاتركُوا مثلي، والآية بيانٌ لأعظمِ أركانِ الإيمان التي يبدأُ بها الدّاعي وهي الإيمانُ بالله واليومِ الآخرِ، وأعادَ "هم" لنكتةِ التّأكيدِ. ويُبيّنُ لهم بأنّه من بيتِ النّبوءةِ لتزيد رغبتُهم في الإيمان ﴿وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ تركتُ طريقَ الكُفرِ لأتّبع طريق الإيمانِ؛ على منهجِ آبائي وأجدادي إبراهيم وإسحاق ويعقُوب عليهم السّلام، ولو شاء يوسف لوصف آباءهُ بالرُّسلِ أو الأنبياء؛ لكنّه اكتفى بذكرِهم آباءً تنبيهًا بأنّ اتّباع الآباءِ ليس منكرًا لذاته و إنّما المنكرُ اتّباعُهم مع فسادِهم، والملاحظ أن يوسف عليه السلام لم يذكر إسماعيل عليه السلام؛ لأنه ليس بأب له ولا لأبيه، و إنما هو عم أبيه، وإن كان الله تعالى عند ذكر وصية يعقوب لبنيه ذكر في ردهم عليه ذكر إسماعيل في آبائهم، فإن سورة يوسف مكية والبقرة مدنية، وقد ذكر بعض المحققين بأن القرآن المكي نزل ابتدأ على كفار قريش وهم متعلقون بإسماعيل عليه السلام لأنه صار منهم؛ فأراد الله أن يكون إيمانهم عن اقتناع لا عن عاطفة لإسماعيل، كما أراد أن ينزع من قلوبهم العصبية، أما في المدينة فالأمر بخلاف ذلك، نظرا لوجود اليهود الذين كانوا ينتقصون إسماعيل عليه السلام فناسب ذكره في الآيات المدنية ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا يحقُّ لنا معشرَ المكلّفينَ أن نجعل لله شركاء في العبادةِ مهما كانوا ما دام أنّه المعبود بحقٍ وحدهُ لما اختصَّ بهِ من صفاتٍ شريفةٍ و أفعالٍ جليلةٍ، أو الكلامُ راجعٌ إلى يوسف و آبائه وهو أليقُ بالسّياقِ ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ والإيمانُ والهدايةُ من نعمةِ الله علينا ومن نعمةِ الله على جميعِ النّاس، وفي تبينِ أنّ ذلك فضلٌ إلهيٌّ فيه دافعٌ آخر لهما إلى الإيمان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ و أكثرُ النّاسِ يجهلُون قدرَ الله فيكفرُون نعمته، وفي دعوةِ يوسف عليه السلام هذهِ وسطَ السّجنِ باهتمامٍ ونُصحٍ؛ ما يرسُم صورةً نيّرةً عن تصرّفِ المؤمنِ مع الابتلاءِ فهو منفّذٌ رسالته التي خُلقَ من أجلها لا تُقعدُه أحوالٌ ولا تُعجزهُ ظروفٌ.

وينوّعُ يوسف عليه السلام في جذبِ الفتيينِ إلى التّوحيدِ مستعملاً أسلوب التّلطّف ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ يا رفيقيّ في السّجنِ أو يا مُلازِمَيْ السّجنِ، واختارَ نداءهما بما يشتركُ فيهِ معهما من الأحوالِ لأنّ في ذلك صلة تربطُه بهما قد تفوق صلةَ الرّحمِ وغيرها ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أيكون نفعُ أربابٍ متعدّدينَ أفضل من نفعِ الإله المتفرّدِ صاحبِ القوّةِ؛ والاستفهامُ تقريريٌّ أي هو لا ينتظرُ جوابًا

منهما و إنما يقرر الأمر، أرشد عقُولهما بأنّ تعدّد الآلهةِ سببٌ لتفرّقِ آرائها واختلاف آرائها سببٌ لفسادِ تسييرِها؛ أمّا الإله الواحد الذي بيدِه تمام السّلطانِ فهو الأجدر بالعبوديّةِ. ثمّ ينتقلُ إلى تحطيمِ عظمةِ تلك الآلهةِ في نفوسهما مخاطبًا لهما ومعرّضًا بحالِهما حينَ كانا مع قومهما ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ﴾ وفي الحقيقةِ إنّ ما سمّيتموهُ آلهةً وعبدتُموهُ تاركينَ به عبادةَ الله الواحد ليس له من مكانةِ العبادةِ شيءٌ؛ وغايةُ ما في الأمرِ أنّكم قلّدتم آباءكم على غيرِ بصيرةٍ فيما فعلُوا، وفي هذا مقابلةٌ لحالِه المستقيمِ في اتّباعه طريقِ آبائه الأنبياء ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ لم يجعلِ الله لكم حُجّةً تستندُون إليها لتُبيحوا لأنفُسكم عبادتها، ونفيُ الإنزالِ كنايةٌ عن عدمِ الإيجادِ مُطلقًا، وكونُ "سُلطانٍ" نكرة في سياقِ النّفي أفاد التّعميم؛ أي لا يوجد أي سلطان على ذلك ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ليس الفصلُ في أمورِ الخلقِ إلاّ بيدِ الله، هو من يُبيّن لهم عبادتهم وعليهِ سيكون حسابُهم، و"إن" هنا نافيةٌ بمعنى ليس ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وقد أمر الله تعالى عبادهُ جميعًا بأن يعبدوهُ وحدهُ لا يُشركوا بهِ أحدًا، ولمثلِ هذه الدّعوةِ نادت جميعُ الرّسلِ ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ما دعوتُكم إليهِ هو الدّين الصّحيحُ القويم الذي لا انحراف فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ غيرَ أنّ أكثر النّاسِ يجهلون بأنّ المعبود بحقٍّ هو الله فيُشركون به غيره، ولعلّ خطاب يوسف عليه السلام هنا ليس تهويلاً حينَ جدّد التّنبيه إلى الأكثريّة الفاسدةِ فهو يُخاطبُ أهل شركٍ في دولة شركٍ.

٣٤. تعبير يوسف عليه السلام رؤيا الفتيين وطلب الملك إفتاءه في رؤياه

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤)﴾

وبعد دعوةِ يوسف عليه السلام الفتيينِ إلى أُصولِ الإيمانِ يأتي إلى تفسيرِ الرُّؤيا؛ وقد أخّرها تقديمًا للأولى وقيل لما تضمّنه التّفسيرُ من قتلِ أحدِهما وصلبِه ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ يا رفيقيَّ في السّجنِ: الذي رأى أنّه يعصرُ خمرًا سيكونُ ساقي سيّدِه الخمرَ؛ وتضمّن هذا إخبارًا بالخروجِ من السّجنِ؛ كما أنّ سقيَ الخمرِ فيهِ إيماءٌ إلى مكانةِ سيّدِه ولعلّهُ الملك الذي سيأتي ذكرُه، و افتتح بالنّداءِ اهتمامًا بما سيُقدّمُ لهما من تفسيرٍ، وبدأ به تأدّبًا إذ يظهرُ أنّه هو من سبقَ بالسّؤالِ؛ ولأنّ تفسيره تضمّن خيرًا وبشارةً ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وأمّا الذي رأى الطّير تأكل من

رأسه فسيصيرُ إلى الصّلبِ وتأكل الطّيرُ من لحمِ رأسه، ولعلّ يوسف قد مهّدَ لهذا الإخبارِ المؤلم بترطيبِ قلبِ الفتى بالإيمانِ وتذكيرِه باسمِ الله القهّارِ لئلاَّ يجزع ثمّ بإيرادِ الكلامِ مجملاً كي يُفهم بتأنٍ فتتجزّأُ المفاجأةُ خلالها وتخفَّ، والصّلبُ ربطُ المقتولِ على خشبةٍ عاليةٍ ليُشاهد، وفي الآية دليل على أن مفسر الرؤيا يكون صادقا وواضحا مع من يفسر له، سواءً حوى تفسيره بشارة أو نذارة ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ انتهى تفسيرُ ما طلبتُما أي لا أزيدُ لكما على ما ذكرتُه، أو الآية بمعنى قد سبق قضاءُ الله بهذا فهو أمرٌ واقعٌ لا محالةَ، والاستفتاءُ طلبُ الإفتاءِ؛ ومعناهُ الإرشاد إلى إزالةِ مشكلٍ أو فهمِ محيّرٍ.

وهكذَا عندما تقرّر خروج الفتى من السّجنِ طلب منه يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أخبر سيّدك بشأني لعلّي أحظى بالنّجاةِ كما نجوت أنت من السّجنِ، أو النّجاةُ من القتلِ والصّلبِ إذ يُحتملُ أنّهما متّهمانِ في قضيّةٍ مشتركةٍ حُبسا احتياطًا فأطلق البريء وعوقب الظّالم، والظّنُ في الآيةِ بمعنى التّيقّنِ أو ما يقربُ منه، وما يذكرُهُ عن يوسف أنّه مظلومٌ و أنّه نبيٌّ وصاحبُ مقامٍ، وهذا التّوسّل دلّ على ضيقِ إقامةٍ في السّجنِ كان يشعُر بها يوسف أضيق من مقامه عبدًا في الخدمةِ؛ مع أنّ أمرهُ بذكرِهِ يوحي بإهمال إدارةِ السّجنِ له ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أنسى الشيطانُ الفتى الناجي ذكر يوسف إلى ربه ـ رب الساقي ـ أي سيده، ويحتمل أن يكون المقصود بـ "فأنساه": تزيينُ الشّيطانِ للفتى ترك ذكرِ يوسف عليه السلام عند سيّدِه أو تصوير الشيطان له بأنّه صعبٌ، وقيل: الضمير في "أنساه" يعود ليوسف عليه السلام، أي تسبب الشيطان في ذهول يوسف عن ذكر الله إلى ذكر السيد، حتى ابتغى الفرج من مخلوق، ذهولا وغفلة في تلك الحال المهولة من السجن ، وليس في قلب يوسف أن يكون شيء بغير الله ، فقد ركن إلى الله وحده ولكنه تسبب بالمخلوق، فعاتبه الله على ذلك لعلو مقامه، وأطال حبسه، وعلى كُلٍّ فالآية تضمّنت ملامةً في غايةِ التّلطّفِ ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ فكان من قدرِ الله أن ابتلى يوسف عليه السلام باللّبثِ في ذلك السّجنِ عدّةَ سنواتٍ، واشتهر البِضع بأنّه من ثلاثٍ إلى تسعٍ وقيل غيرُ هذا، وفي تفصيلِ مثلِ هذهِ المحنةِ تسليةٌ لكلِّ مظلومٍ بأنّ ثمةَ نبيٌّ -مع علوّ مقامه عند الله- لم يسلمِ من كوادرِ الحياةِ.

وبعد مرورِ سنواتٍ على يوسف وهو في السّجنِ يُقدّرُ الله سببًا لخروجه ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ قال ملكُ مصرَ لحاشيتِه وأعوانه: رأيتُ في منامي حُلمًا: رأيتُ سبعَ بقراتٍ هزيلاتٍ يقمن بأكلِ سبعِ بقراتٍ سمينات، وعبّر بالمضارع لحضورِ تلك الحالِ في مخيّلته وكأنّها تتكرّرُ، و"عجاف" جمعُ أعجف وهو الهزيل الضّعيف، ولعلّ وجه الفزعِ الذي حمله على طلبِ تفسيرِ ما رآهُ: كيف للبقرِ أن يأكل جنسه؛ وكيف للضّعيف أن يأكل السّمين؛ ثمّ ما وجهُ اجتماعِ ذلك مع السّنابل؟ ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ ورأيتُ في تلك الرُّؤيا سبعَ سنابلَ طريّاتٍ وسنابلَ معها

قد يبسنَ، ويظهرُ أنّ القرآن أجمل الرُّؤيا وهي تحتملُ تفاصيل أُخرى مثل أنّ السّنابل اليابساتِ سبعٌ كذلك، وبينَ "سمانٍ وعجافٍ" ثمّ "خُضرٍ ويابساتٍ" طباقٌ وهو من محسّناتِ الكلام. ثمّ يقُول الملكُ لحاشيته: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ فسّرُوا لي ما رأيتُ إن كُنتم ذوي علمٍ بتفسيرِ أمثالِ هذهِ الرُّؤى، وجعلَ الملكُ السّؤال عامًّا مع عدمِ خلوّ من سألهم من متمكّنينَ في هذا العلم بدليل أنّ الفتى النّاجي سينهضُ للبحثِ عن يوسف عليه السلام ليُفسّرَها، و"تعبُرُون" مِن العُبورِ من صورةِ الرُّؤيا إلى ما قصدَ بها وهكذا يحصلُ تفسيرُها، وما ألطفَ تعبيرِ القرآنِ حين عبّر بالإفتاءِ في مجالِ الرُّؤى هنا وعند قوله: ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾. أجاب الملأُ ملكهم ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ ما رأيت نحسبُهُ أحلامًا مختلطةً؛ أي تملّصُوا من التّأويلِ بادّعاءِ أنّ ما رآهُ من الأخلاطِ والمختلط ليس له تأويلٌ، و"أضغاثٌ" جمعُ ضغثٍ وهو حزمةُ نباتٍ مختلط عُبّر به على سبيلِ الاستعارةِ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ ولسنا أهل اختصاصٍ في تفسيرِ الأحلامِ، ويُطلق الحلم لُغةً على عمومِ الرُّؤيا صدقت أو كذبت؛ وورد الحديثُ مفرّقًا بين الحُلُم والرُّؤيا ﴿الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾[٢٩].

٣٥. تعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾

وهكذا يُقدّرُ الله عجزَ ملأِ ملك مصرَ عن تفسيرِ ما رآهُ ليُمهّدَ لخروج يوسف عليه السلام فبيده سبحانه تسييرُ الأسبابِ ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ وقال الفتى النّاجي من بينِ الفتيينِ اللّذينِ دخلا السّجنَ مع يوسف عليه السلام ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ تذكّر صاحبهُ يوسف وما كان له من شأنٍ في تفسيرِ الرُّأى بعد طول نسيانٍ؛ ولعلّه نسيان نسبيٌّ مؤوّلٌ بالذّهولِ عن أمرٍ كان في الحسبانِ، والادّكار التّذكّر، والأمّةُ الزّمنُ الطّويلُ استعير من جماعة الناس لكونه سببًا لانقضاءِ جماعةٍ ومجيءِ أُخرى ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أنا أحملُ مسؤولية تفسيرِ الرُّؤيا فكلّفوني أقصدُ من يُفسّرُ رُؤياكم، و افتتحَ كلامهُ بضميرِ "أنا" تقويةً لموقفه كي يُصدّقَ، وعبّر بالجمعِ تعظيمًا لمقامِ الملك، ولم يقل: أُفتيكم مراعاةً لأمانةِ نقلِ التّفسيرِ إلى الملكِ كما راعى نقلَ الرُّؤيا بحرفِها إلى يوسف عليه السلام؛ ولم يذكُرهُ ليفوزَ بمعرفته والذّهابِ إليهِ

---

[٢٩] رواهُ الرّبيع من طريقِ جابرِ بن زيدٍ، باب: الرُّؤيا،ر:٥٢(٣١/١)

ولعلّهُ كان يعلمُ أنّه لم يزل في السّجنِ. واستجابَ الملكُ وأرسل الفتى إلى حيثُ يوجد سجن يوسف فطلب منه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ يا يوسف المعهود بالصّدقِ البالغ، وفي الآيةِ براعةُ استهلالٍ حيثُ قدّم الثّناء على الطّلبِ طمعًا في الإجابة؛ ثمّ إنّ الثّناء كان صادقًا بتذكيرِه بعهدٍ سبقَ بينهما في تفسيرِ الرُّؤيا، ولم يُعاتبه يوسف على نسيانِه في السّجنِ مع ما أوصاهُ من ذكرِه عند ربّه لعلمه أنّه لا ذنب له ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ أفهمنا في شأنِ رُؤيا رآها الملك؛ وقد سبقَ تفصيلُها، ولمّا كان الإفتاءُ لغيرِه لم يقل: أفتني؛ بل نسبَ ذلك إلى الجماعة؛ إذ الظّاهرُ لأوّل الأمرِ أنّ رُؤيا الملك لها أثرٌ على مملكته وعلى عامّةِ أفرادها بالتّبع ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ عسايَ أرجعُ إلى الملكِ وحاشيته بما أتيتُ من أجله؛ وعسى أن يعلموا منّي ما أرسلُوني له فهم لم يفهموهُ؛ أولعلّهم يعلمون مكانتكَ يا يُوسف، ولفظُ النّاسِ عامٌ أريد به خُصوص مَن أرسلُوه ولعلّهُ واحدٌ أي الملك، وجعل أمرَهُ على التّرجّي (لعلي) لأنّه لمس في غيرِه العجزعن تفسيرِ الرُّؤيا؛ أو تأدُّبًا إذ خافَ عدم وصولِ التّفسير إلى الملكِ بمانعٍ ما؛ أو أنّهم لا يعتدُّون بتفسيرِ يوسف.

ولُطفًا من الله بالأمّةِ التي آوت يوسف عليه السلام، يُكرم نبيّهُ بتأويلِ الرُّؤيا فيقصُّها على الفتى ثمّ ينطلقُ إلى الملك فينقُل له ما يلي: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ عليكم زراعةَ الأرضِ وخدمتها بحرصٍ وكدٍّ مدّةَ سبعِ سنواتٍ؛ أو الآيةُ من بابِ الإخبارِ بما سيقعُ، والدَّأبُ الاستمرارعلى عملٍ ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ وما جنيتُموه في هذهِ السّنوات فاتركُوهُ في السّنابِل لا تدقُّوهُ؛ لأنّهُ سيكونُ أسلم من السّوس إذا تراكم فوقَ بعضِه، وما سبقَ من ذكرِ الزّرعِ توطئةٌ؛ وهنا بيتُ القصيدِ من التّفسيرِ فهم يزرعُون على عادتهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ وما تحتاجُونه للأكلِ والاستهلاكِ فقط فانزعُوهُ عن سُنبُله، يقُول صاحبُ التّحريرِ والتّنوير: "فالبقراتُ لسنين الزّراعةِ لأنّ البقرة تتّخذُ للإثمارِ، والسّمَن رمزٌ للخصبِ، والعجفُ رمزٌ للقحطِ، والسّنبلات رمزٌ للأقواتِ، فالسُّنبلات الخُضرُ رمزٌ لطعامٍ ينتفعُ بهِ؛ وكونُها سبعًا رمزٌ للانتفاعِ به في السّبعِ السّنينَ؛ فكُلُّ سنبُلةٍ رمزٌ لطعامِ سنةٍ؛ فذلكَ يقتاتُونه في تلك السّنينَ جديدًا، والسُّنبلاتُ اليابساتُ رمزٌ لما يُدّخر..."[٣٠] ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ وستأتي عليكم بعد سنواتِ الخصبِ السّبعةِ سبعُ سنينَ شديدةَ القحطِ تستهلكون فيها ما ادّخرتموهُ لها، والأكلُ هنا مجازٌ لأنّ السّنين لا تأكل وإنّما يأكل النّاس فيها ما تثمرُه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يأكلن كلّ ما ادّخرتُم ولا يبقى إلاّ ما تترُكونه لزراعةٍ أو أكلٍ؛ وذكرُ القليلِ المتبقّي تحريضٌ على الادّخارِ، وأحصنَ بمعنى أحرزَوادّخر، ويظهرُ أنّ تفسيرَ الرُّؤيا انتهى هنا وقولهُ الآتي تحصيلُ حاصلٍ بعدَ سني القحطِ أو هو غيبٌ جديدٌ أُخبر به: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ وبعدَ سبعِ سنواتِ

[٣٠] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٢، ص٢٨٦.

خصبٍ وسبعِ سنواتِ قحطٍ مباشرةً يفرّجُ الله على النّاسِ بعامِ خيرٍ ورخاءٍ يزيلُ كلّ آثارِ المحنةِ، وقولُه: "من بعدِ ذلك" باسمِ الإشارةِ دونَ "من بعدهنَّ" في الموضعينِ تعظيمٌ وتفخيمٌ لوصفِ السّنينَ، ومن سُنّةِ الله في خلقهِ مجيءُ العُسرِ بعدَ اليُسرِ مهما طالَ ومجيءُ اليُسرِ بعدَ العُسرِ كيفما امتدَّ ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ وفي ذلك العام يعصرُ النّاسُ كُلّ ما من شأنه أن يُعصر كالعنبِ والزّيتون، وهو كنايةٌ عن أعمالِ الجني والادّخارِ أو استعارةٌ من حالِ الحلبِ إذ لا يحصُل إلاَّ بخصبٍ، والفرقُ بينَ تفسيرِ النّبيّ وغيرِ النّبيّ للرُّؤيا قطعيّةُ التّفسيرِ وظنّيّتُه؛ على أنّ كُلاً من أهلِ التّفسيرِ.

٣٦. رغبة يوسف عليه السلام في تبرئة ساحته، واعتراف امرأة العزيز بذنبها

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾

ولَمّا بلّغ السّاقي إلى الملك تفسيرَ يوسف عليه السلام للرُّؤيا أمرَ الملك أن يأتوا به إليهِ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ اذهبُوا إلى يوسف وأحضرُوه إليّ، وفي طلبِ إحضارِه استحسانٌ مبدئيٌ لما قدّمه من تفسيرٍ، والظّاهرُ أنّ الملك قد علم قصّة يوسف ودخوله السّجن وقطعِ النّسوةِ أيديهنَّ لانتشارِ خبرِها؛ فأرادَ يوسف أن يكون وقوفه بين يديه موقف إعزازٍ لم تخالطهُ تهمةٌ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ فحينَ وصل مرسُول الملكِ إلى يوسف عليه السلام وطلب منه أن يحضر إلى حضرةِ الملك؛ ردَّ عليهِ يوسف بما يوحي بتحلّيه بالصّبرِ انتظارًا للنّصرِ: عُد إلى سيّدك الذي بعثك إليّ، ولعلّهم لم يحملُوه رغمًا عنه إذ الأمرُ بالإتيانِ دلَّ على رفقٍ وتلطّفٍ ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ماذا يعلمُ عن خلفياتِ قصّةِ النّسوةِ اللّائي جرحن أيديهنَّ؟ هل يدري أنّي دخلتُ السّجن بسببهن ظُلمًا؟ فقد أبى عليه السلام أن يخرُج قبل أن تُطهّر ساحته، ومن لطائفِ أدبه وحكمته أنّه لم يتّهمهنّ بل دعا الملك إلى معرفة أمرٍ خفيَ عنهنّ؛ والنّفس للبحثِ عن الخفيّ أميل، ولم يقصر قضيّته على امرأةِ العزيزِ احتياطًا لئلاَّ تتعرّض له بمكرٍ آخر؛ ولأنّ معرفة النّسوةِ يحتّم معرفةَ قضيّتها، وقد نلنَ جميعًا كرمًا منه لَمّا ذكرهنَّ بتقطيعِ الأيدي دون المراودةِ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وإن خفيَ ما خفي على الخلقِ فالله عليمٌ بما كدنَهُ لي، وأكّد الكلام

لأنّ المخاطبين لقدرِالله جاهلون؛ وأضاف الرّب لنفسه لأنّهم بربّه لا يعترفُون، وجعل البعض معنى ربّي هنا "سيّدي"، يقُول القُطب: "وفي الآيةِ حثُّ الإنسانِ على نفيِ التّهمِ عنه"[٣١].

واهتمّ الملكُ بقضيّةِ النّسوةِ وعلم دقائقها فأمر أن يحضرنَ؛ وحضرنَ وسألهنَّ معاتبًا بدليلِ أنّه تركَ تقطيع الأيدي و اتّجه إلى السّؤالِ في المراودةِ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ما حقيقةُ هذا التّصرّف الذي حملكنَّ حتّى وصلتنّ إلى مراودةِ يوسف تطلبنه كي يميل إليكنَّ؟ والخطبُ الأمر العظيم الجلل سُمّي بذلك للزومِ الخطابِ فيه، ووزّع الملك التّهمة القضائيّة على جميعِ النّسوةِ من بابِ سترِه على امرأةِ العزيزِ أو أنّه وصل إلى أدلّةٍ تُثبتُ التّهمة لهنّ. أجابت النّسوة الملك ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ مبالغةٌ في التّنزيه لجهتهنَّ، أي لم نراودهُ البتّة، ثمَّ نزّهنَ يوسف عليه السلام بقولهنَّ فيه: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ لم نعهد عليهِ فسادَ أخلاقٍ ولا ميوعةَ طبعٍ؛ ورفعهنَّ لمقامِ يوسف عليه السلام هنا تخليصٌ لأنفسهنّ؛ لأنّ من شأنِ المراود أن يجتهدَ في من يكون مثله طبعًا أو قريبًا منه، و"سوء" نكرةٌ في سياقِ نفيٍ أفادت عموم السّوء كالنّظرِ والإشارةِ واللّمسِ وغيرِ ذلك، وسمّي الذّنبُ سوءًا لأنّه يسوء القلب. وفي هذا الموقِف ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ لم يبقَ مجالٌ لكتمِ الحقيقةِ الآن، و"حصحص" بمعنى ظهر وثبت، ولعلّ موقف امرأةِ العزيزِ لم يكن خوفًا من هيبة الملك بل غلبها يوسف عليه السلام بأدبه وخصاله و أنّه لم يجرؤ عليها ولو بأمرٍ ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنا التي دفعتُ يوسف إلى الفاحشةِ لا غيري؛ وإنّ يوسف صادقٌ فيما أنكرَ، وهذا الموقفُ عودٌ إلى قصّةِ قدِّ القميص ومقابلةِ السّيّدِ لدى البابِ وقولِ يوسف ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ الكلامُ ليوسف عليه السلام لا لامرأةِ العزيز-على رأي جمهورِ المفسّرينَ- قاله بعد موقفِ النّسوةِ أمام الملك، و"ذلك" إشارةٌ لما سبق من موقف طلبِ إظهارِ براءته، بمعنى أنّه أرادَ أن يوصل إلى الملكِ وكلِّ مَن سمع بقضيّته وإلى العزيز خاصّةً أنّه لم يخنه في امرأته حال غيابِه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ويستيقنَ أنّ الله لا يسدّدُ الذي انطوى قلبه على خيانةٍ لله أو لعبادِه، ونفيُ هدايةِ الكيدِ مجازٌ عن إنفاذِه وتحقيقه ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ولا أدّعي أنّي معصومٌ من الوقوعِ في الخطأِ مطلقًا، وفي هذا الكلام مصارحةٌ صبغت بلونٍ من التّواضع الذي هو مِن خصالِ الصّالحينَ، وهذا الكلامُ يجدُر أن يصدر من قلبٍ مليء بالعرفان ويبعُد أن يكون لامرأةِ العزيزِ ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إنّ النّفس البشريّة لتدعو إلى المنكرِ وتدفعُ إليهِ، ولا يقوى على ردّها إلاّ مَن رحمه الله فعصمهُ، و"أمّارةٌ" مبالغةٌ في وصفها بالأمرِ ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله واسع المغفرةِ عظيمةٌ رحمتُه لمن تاب إليه وتضرّع.

---

[٣١] امحمّد بن يوسف أطفيّش: تيسير التّفسير، مصدر سابق، ج٧، ص١٤٠.

نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

أ	ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه.
ب	عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب.
ج	جميع ما ذكر صحيح.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

أ	الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره.
ب	الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت
ج	لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

أ	الغنائم من الحرب.
ب	ما يتقرب به المسلم إلى الله من النوافل.
ج	قوافل التجارة.

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

أ	عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال.
ب	للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا.
ج	أ و ب صحيحتان .

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

أ	المسلمين والمشركين.
ب	العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم.
ج	المسلمين واليهود.

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

أ	سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون.
ب	سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم.
ج	سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون.

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

أ	كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي.
ب	كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها.
ج	كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي.

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

أ	إيمان الإنسان أو كفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا.
ب	يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب.
ج	التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع.

٩- قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

أ	التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث.
ب	التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس.
ج	أ و ب صحيحتان.

١٠- قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

أ	المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى.
ب	غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك.
ج	"أ" و "ب" .

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى ....., وكان ذلك في .....

أ	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة.
ب	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة.
ج	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة.

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو ....., وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

أ	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم.
ب	المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.
ج	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله وإفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم.